

## الباب الثالث

### عطاء الحضارة الإسلامية في مجال بناء النظم والمؤسسات

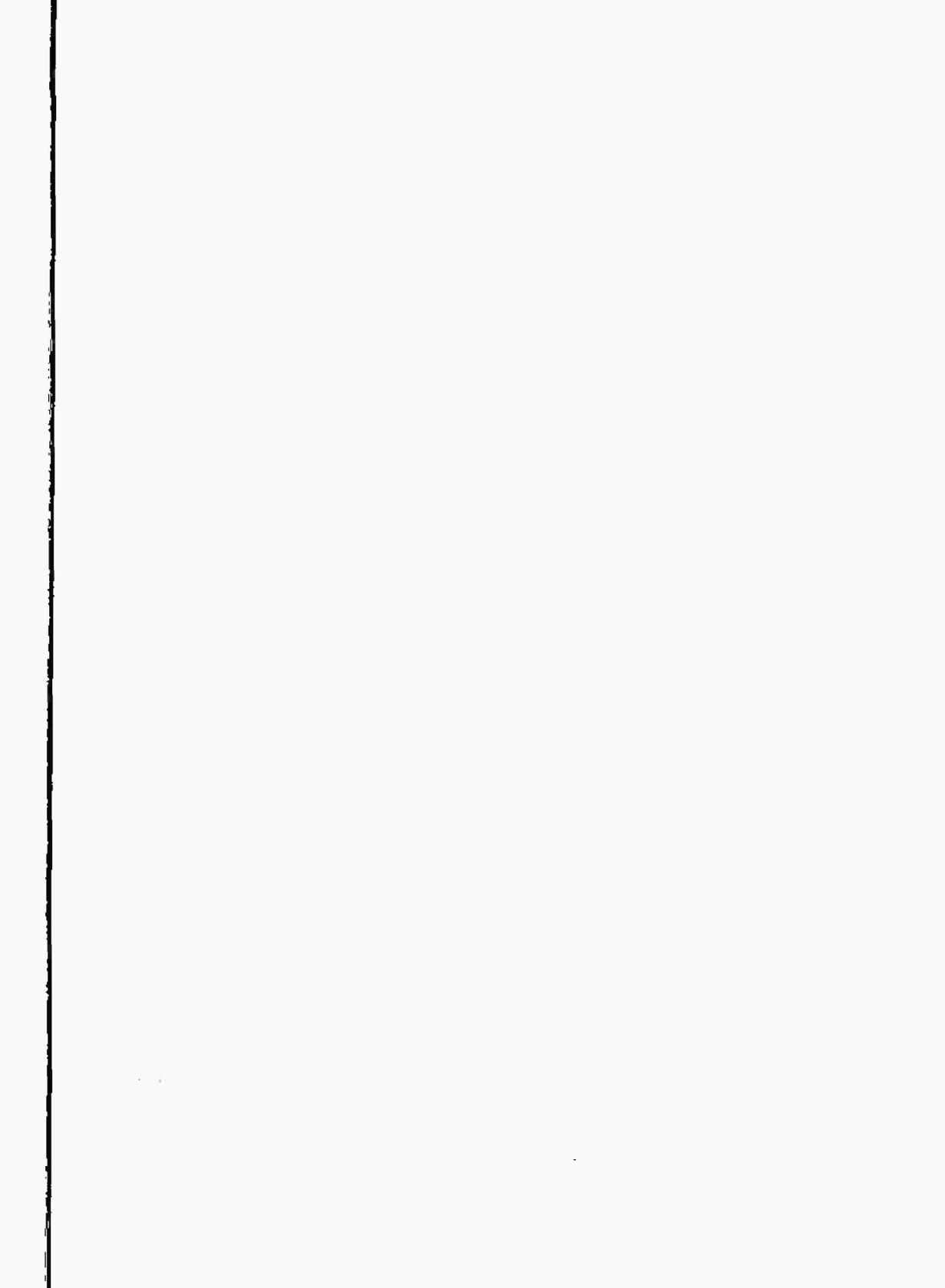
الاجتماعية . ويتضمن أربعة فصول، وهي:-

الفصل الثاني عشر: الإبداع الإلهي في بناء الأسرة المسلمة، في مواجهة قيم العولمة والتحديات المعاصرة.

الفصل الثالث عشر: العطاء الإسلامي في مجال التربية والصحة النفسية.

الفصل الرابع عشر: العطاء الإسلامي في مجال السياسة وبناء الدولة الدستورية - دولة الرعاية والرفاهية المنضبطة بهدى الله.

الفصل الخامس عشر: عطاء الحضارة الإسلامية في مجالات أخرى



## الفصل الثاني عشر

### الإبداع الإلهي في بناء الأسرة المسلمة

### في مقابل العولمة والتحديات المعاصرة

- ١- مقدمة منهجية للفصل.
- ٢- ما المقصود بالعولمة.
- ٣- العولمة الثقافية أم التنوع الثقافي الخلاق.
- ٤- العولمة الثقافية.. أنصارها وأعداءها.
- ٥- التزاوج بين الكائنات سنة من سنن الله في كونه.
- ٦- الإعجاز الإلهي في مجال بناء الأسرة ووظائفها.
- ٧- الإسلام في مواجهة التحديات المهددة لمؤسسة الأسرة.
- ٨- أهم المخاطر المحلية الاجتماعية والثقافية المهددة لمؤسسة الأسرة.
- ٩- وبعد وما السبيل.

### مقدمة منهجية للفصل

البحث العلمي يبدأ بمجموعة من الفروض وينتهي إلى تحقيقها، أو يبدأ من مجموعة تساؤلات وينتهي بالإجابة عليها. وسوف يدور البحث في الفصل الحالي حول (العولمة ومنظومة القيم الدينية) حول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي يطرحها الباحث وهي كما يلي:

أولاً: ما هي منظومة القيم الدينية بشكل عام والإسلامية بشكل خاص التي تحكم حركة الإنسان وسلوكه ونشاطه وعلاقاته، وتتحكم حركة المجتمعات والتاريخ، وتتحكم الأنشطة السياسية والتربوية والأسرية، وتتحكم حالات السلم والحرب؟

ثانياً: ما هي منظومة القيم التي تدعو إليها العولمة المعاصرة، وما هي تجلياتها وأنواعها، العولمة السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتكنولوجية.. إلخ وما هي الأجهزة الدولية المسئولة عن نشر قيم العولمة (البنك الدولي - منظمة النقد الدولي - نادي باريس - منظمة التجارة العالمية - الإعلام - المواثيق والاتفاقيات الدولية - المؤتمرات الدولية... إلخ)

ثالثاً: ما الفرق بين العولمة المعاصرة وبين عالمية الإسلام، وأقصد هنا اعتساف المؤسسات والقوي الدولية في نشر قيم ونظم وتقاليد وأساليب الحياة في الغرب، داخل دول العالم، من خلال آليات القهر والقوة السياسية والاقتصادية والثقافية؛ بل والعسكرية أحياناً كثيرة. والمقارنة بين هذه الأساليب والآليات والمضامين، وبين مضامين القيم الإسلامية، والأحكام الشرعية السامية التي أهداها الإسلام للبشرية التي تحمي الإنسان في عرضه وكرامته وماله وعقله ودينه وأسرته وحقوقه... إلخ بالحكمة والموعظة الحسنة، وتلك القيم والأحكام التي ترفض كل أشكال القهر والإكراه والعدوان والضغط. فلا إكراه في الدين ولا إكراه في الرأي ولا في التنقل ولا التصرفات ولا بناء الأسرة... مبدأ انعدام كل أشكال الإكراه والقهر، في إطار الضوابط الإسلامية الشرعية، التي تحول دون العدوان والإضرار بالنفس أو الغير، أو الاعتداء علي مكارم الأخلاق وقيم الإسلام العليا، هي أجل ما قدمه الإسلام للبشرية من قيم بعد عقيدة التوحيد.

رابعاً: هل هناك تصادم حتمي بين منظومة القيم الدينية الإسلامية وبين قيم العولمة، وما هي أوجه الالتقاء والاختلاف بينهما؟ وهل هذا الالتقاء أو الاختلاف شكلي؟ أم هو التقاء في المقاصد والأهداف؟

خامساً: ما الذي تحقق بالفعل من منظومة قيم العولمة؟ وإذا كانت بعض القيم تحققت فعلاً في بعض الميادين، كالإقتصاد والسياسة والعلم والتكنولوجيا.. إلخ فهل يمكن تحقيق العولمة في المجال الثقافي؟ وهل يمكن تحقيق حالة السيولة الثقافية في العالم؟ وهل يمكن القضاء علي العشرة آلاف ثقافة الموجودة في العالم حسب تقرير لجنة التنمية برئاسة (دي كويلار) الذي كتب في نهاية العقد العالمي للثقافة والذي صدر سنة ١٩٩٦ م بعنوان "تنوعنا البشري الخلاق" our creative diversity<sup>(٣٢٥)</sup>، وهل يمكن أن تسود قيم العولمة - المادية - النفعية - المصلحية. إلى جانب. فصل الاقتصاد والنشاط الاجتماعي عن الأخلاق - حقوق الإنسان - والديمقراطية والحرية والشفافية وتحرير المرأة بمفهوم الغرب، ومضامين القيم الغربية الليبرالية... هل يمكن سيادة هذه المنظومة القيمية المعولمة، والتي تستهدف زيادة ترليونات ٤٧ ألف شركة عالمية عابرة للقرارات، كل هذا علي حساب المصالح الحقيقية للناس والشعوب والأسر التي تدافع عنها قيم السماء؟

(٣٢٥) راجع دراسة المؤلف بعنوان: التمية بين التوجهات الدينية والوضعية: دار المعرفة الجامعة - الإسكندرية

سادساً: ما خطورة قيم العولمة في المجال الثقافي بشكل عام؟ ومجال القيم والأخلاق والسلوكيات المرتبطة بمؤسسة الأسرة بشكل خاص؟ (٣٢٦)

سابعاً: ما المخرج والعمل وما دور العمل الإسلامي الوسطي المستتر في الخروج من هذا المأزق الصعب؟

ثامناً: كيف نستطيع تحويل منظومة القيم والنظم الإسلامية (في السياسة والاقتصاد والأسرة والتربية والعلم والتعليم... إلخ) إلى طاقة فعالة في المحافل الدولية وهيئات المجتمع المدني العالمي؟ وكيف يسهم المسلمون إيجابياً في تشكيل النظم العالمية والمواثيق الدولية، تحقيقاً لمقاصد الإسلام، وانتصاراً لحقوق الإنسان وحررياتهم وكرامتهم، وحقهم في أسرة نظيفة تحميها قيم السماء، وحقهم في حماية دينهم وما لهم وعقلهم وكرامتهم وأمنهم المادي والمعنوي؟

وأرى أن البديل بهذا هو تحول مجتمعاتنا الإسلامية المنغلقة غير المشاركة إيجابياً في المنظمات الدولية، إلى مجتمعات تتجاوزها حركة التاريخ كالثود الحمري؛ ولهذا نحرم العالم كله من هدي السماء من جهة، ونتحول إلى ضحايا نلحن حظنا العاثر ونلنن العولمة دون أي جهد إيجابي منا في ترسيدها.

تاسعاً: كيف يمكن للموروث الثقافي الإسلامي أن يوجهنا في مجال كيفية التعامل مع العولمة المعاصرة بقيمها المادية والنفعية والمصلحية والعنصرية والأخلاقية والتسلطية... إلخ؟

التحليل الموضوعي للعولمة والفرق بينها وبين العالمية يكشف عن تعدد جوانب العولمة؟ وتعدد إيجابياتها وتعدد سلبياتها كذلك، وقد كان تركيز أكثر المفكرين المسلمين على الجوانب الثقافية للعولمة. وما هو مهم وإيجابي هو بيان كيف يمكن لمنظومة القيم الإسلامية أن تسهم في إعادة بناء النظام العالمي وتجديده ومواجهة ما تعرضه العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية من تحديات، وما هو أهم أيضاً مشاركة الفكر الإسلامي والدول الإسلامية في تحديد مسيرة العالم الاقتصادية والسياسية والثقافية، وعدم الانقياد على ذم العولمة والتركيز على أننا ضحايا العولمة دون أن نقدم شيئاً إيجابياً، فالإسلام يعلمنا الإيجابية وهو مع فكرة التعددية والتنوع الحضاري وحق الشعوب في

ذلك، وليس مع فكرة القهر والتميط الحضاري والتمييز بين الدول والشعوب والطبقات. وهذا أيضا من أجل عطايا الإسلام عقيدة وشرعية وحضارة.

ويدرك المتأمل للمتغيرات الثقافية والاجتماعية والتربوية في عالم اليوم أن هناك توجهها يطبع العالم بكل مجتمعاته وثقافته بالطابع الغربي - القيم - الاتجاهات - مجالات الاهتمام - أغانط السلوك - نماذج العلاقات (٣٢٧).

إلخ. وهذه المحاولة المستميتة التي يستخدم فيها الغرب أعني أسلحة العصر الثقافية (السموات المفتوحة والقنوات الفضائية، والإنترنت، والضغط الاقتصادي والسياسية، والمؤسسات الدولية بما فيها أجهزة الأمم المتحدة، ومؤسسات العولمة الجديدة، كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية والمؤتمرات الدولية والاتفاقات والإعلانات الدولية ذات الطابع الملزم (٣٢٨) هذه المحاولة الموحشة تستهدف القضاء علي المشروع القيمي والأخلاقي الإسلامي الذي يركز علي عدة مقومات أهدتها السماء إلى الأرض، وجاء بها وحي منزل. والهدف من وراء ذلك تضاعف أرباح مجموعة شركات عالمية علي حساب إفقار واستذلال شعوب العالم النامي بما فيهم شعوب العالم الإسلامي. وأبرز هذه النماذج القيمة الإسلامية المستهدفة من جانب محاولات العولمة الثقافية المعاصرة، هي ما يلي بإيجاز شديد.

١- قيمة العدل: فالعدل أساس مهم في القراءة الاجتماعية للإسلام - ومفهوم العدل هنا - إعطاء كل ذي حق حقه، وحفظ حقوق الناس كافة بغض النظر عن الجنس واللون والدين والقرابة والعصية - وآيات العدل في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة، ويكفي أمّا أمر من الله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) (النحل: ٩٠).

ولم يشهد التاريخ تطبيقا للعدالة في نموذجها الإسلامي - كما طبقت في عهد الرسول ﷺ وأثناء حكم الخلفاء الراشدين وفترات تطبيق صحيح الإسلام في العصور التالية. فلغير المسلمين نفس حقوق وواجبات المسلمين بشروط عادلة نصت عليها الشريعة.

(٣٢٧) راجع الصاوي الصاوي أحمد: القيم الدينية وثقافة العولمة . سلسلة قضايا إسلامية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ١٢١ لسنة ٢٠٠٥ الفصل الخامس

(٣٢٨) أحمد الدغش: فلسفة المساواة بين الرجل والمرأة في الاتفاقات والإعلانات الدولية في ضوء فلسفة التربية الإسلامية: بحث قدم ونوقش في المؤتمر الدولي بشأن أحكام الأسرة الإسلامية بين الشريعة الإسلامية والاتفاقات والإعلانات الدولية - نظمه،،، جامعة الأزهر،،، ورابطة الجامعات الإسلامية بطنطا في الفترة من ٧ - ٩ أكتوبر

٢- قيمة الرحمة: وهذه القيمة تلخص أهداف رسالة الإسلام (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ).

(الأنبياء ١٠٧)

٣- وحدة الأصل البشري (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء: ١)

٤- قيمة حقوق الإنسان وحرياته بوصفه عبداً مخلوقاً لله ولا فضل لأحد عليه إلا الخالق. وتاريخ الميلاد الحقيقي لحقوق الإنسان وحرياته رسالة محمد ﷺ وليست الثورات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية والمواثيق الدولية الحديثة. والحرثيات في الإسلام مكفولة ابتداءً من حرية الاعتقاد والعبادة، إلى حرية الرأي والتجمع والتنقل والتملك في إطار الضوابط الشرعية.

٥- قيمة إعلاء الحق وانتصاره ولو كره الكارهون. فالحق أحق أن يبعث الله نبياً (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَلْوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) المائدة (٤٨).

٦- قيمة المساواة: فالناس كلهم سواسية لا فرق بينهم إلا بالتقوي والعمل الصالح النافع الذي يرضي الله والذي يحقق النفع لكل الناس.

٧- قيمة العلم والإحجاز: وفي القرآن العديد من الآيات التي تحمّل العلم إلى فريضة دينية طالما ينبغي به وجه الله وتحقيق النفع لكل الناس عامة والمسلمين خاصة.

٨- قيمة التنمية: يقول تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هو: ٦١)، والتنمية لا توظف لصالح طبقة أو طائفة أو فئة، وإنما لينتفع بعائدها الجميع. وتوظف لتحقيق حد الكفاية والغني لكل أعضاء المجتمع (٣٢٩).

٩- قيمة الوحدة والاعتصام بحبل الله - والآيات الموصية لهذا في القرآن كثيرة (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران ١٠٣)

قيمة التكافل الاجتماعي: وحق لآخرين في مال الإنسان وفي جهده وفي عمله، فالمال مال الله ونحن مستخلفون فيه يقول تعالي (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلْنَاكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) (الحديد: ٧). (وَأَتَوْهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) (النور ٣٣) (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات ١٩) (٣٣٠).

١١- قيمة التسامح واحترام حقوق الآخر والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة (٣٣١).

١٢- قيمة الوسطية في العبادات والمعاملات والعلاقات وكل شيء (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (البقرة: ١٤٣) وهناك قيم أخرى كثيرة يحفل بها ديننا الإسلامي مثل قيمة العقل وإعلاء قدره لدرجة أن التفكير في الإسلام فريضة دينية، بشرط أن ينضبط بضوابط الوحي، ومثل قيمة السلام والأمن، وقيمة الأسرة المنضبطة بضوابط الإسلام.... إلخ.

كل هذه القيم تنطلق من القيمة الكبرى في الإسلام وهي التوحيد المطلق، وهي قيم يضيق عليها العقلاء من المسلمين والغرب.

هذه المنظومة القيمية الإسلامية تعارض مع القيم التي تحاول العولمة المعاصرة فرضها بأساليبها الشيطانية، مثل قيمة الفردية والحريات غير المنضبطة وممارسة كل أشكال الانحراف باسم حقوق الإنسان، (كالتحلل الأخلاقي والجنسية المثلية) وقيمة المادية الصرفة، وعبادة المادة من دون الله، والسعي لتعظيم الأرباح المشروعة دون نظر لما تسببه من آلام وجراح ومآس اجتماعية (٣٣٢) وإنسانية لدول ومجتمعات وفئات اجتماعية واسعة. والفصل التام بين الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبين الدين والأخلاق.

ولاشك أن الموروث الثقافي والحضاري المستمد من صحيح الدين له عظيم الأثر في بيان كيفية التعامل مع ظاهرة العولمة في مختلف مجالاتها ومبادئها، ونستطيع تحديد قيم العولمة الأساسية فيما يلي:

قيم العولمة: المادية - النفعية - المصلحية فصل الاقتصاد عن الأخلاق - الاستمتاع الحسي إلى أقصى حد دون ضوابط دينية - الديمقراطية - الحرية - حقوق الإنسان - تحرير المرأة بمفهوم

(٣٣٠) محمد شوقي الفنجري: المصدر السابق ص ١٨ وما بعدها .

(٣٣١) محمود حمدي زقزوق: التسامح في الإسلام: في سلسلة فكر المواجهة رقم (١٣) التي أصدرتها رابطة الجامعات الإسلامية سنة ٢٠٠٥ ص ٩ وما بعدها .

(٣٣٢) راجع حامد بن أحمد الرفاعي: الإسلام والنظام العالمي الجديد - سلسلة (دعوة الحق) كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة . العدد ١٤٦ سنة ١٤١٩ هـ الفصل الرابع - ١٢٣ - ١٤٦ . وراجع أحمد القديري الإسلام وصراع الحضارات - كتاب الأمة - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في قطر - مايو ١٩٩٥ ص ٥٣ - ٦٣ .

ومضامين الغرب، بعضها يتصادم مع المفاهيم والقيم الدينية التي تتفق مع الفطرة السوية والعقل السوي والشرع السماوي.

### ما المقصود بالعولمة؟

تعدد الرؤي ووجهات النظر إلى مفهوم ومضمون العوالم، فالبعض يري أننا إذا قصدنا بما محاولة هيمنة إحدى الدول أو الحضارات علي مقدرات الدول والحضارات الأخرى، ومحاولة فرض أنماط الحياة والتفكر والسلوك داخل الدول الأقوي علي الدول الأضعف، أو داخل الدول المنتصرة علي الدول المهزومة، ومحاولة استنزاف الدول الأقوي والمنتصرة للدول الأضعف والمهزومة علي أنه، إذا قصد بالعوالم هذا المعني، فإن العوالم ظاهرة قديمة، فالإمبراطوريات القديمة، مثل الإمبراطورية الرومانية، وكل الدول الاستعمارية القديمة والحديثة، مثل الاستعمار الفرنسي والاستعمار الإنجليزي، والإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عنها الشمس، كل هذه الدول كانت تمارس العوالم بالمفهوم السابق. (٣٣٣)

لكن العوالم في المفهوم المعاصر الذي يؤرخ له المفكرون بسقوط الاتحاد السوفيتي وغياب التوازن العالمي بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، وبين حلفي وارسو والأطلنطي، ونهاية الحرب الباردة وزوال الشمولية، وانتصار الليبرالية الرأسمالية بوصفها نهاية التاريخ - علي حد تعبير المفكر الأمريكي الياباني الأصل (فوكوياما) - وبوصف الحضارة الغربية الرأسمالية سوف تنتصر علي كل الحضارات الأخرى في جولات صراع الحضارات التي (بشر بها هنتجتون)، فإن هذه العوالم بهذا المعني إنما نجمت عن عدة عوامل مهمة وموضوعية، أهمها:

- ١- الثورات العلمية والتكنولوجية خاصة في مجال المعلومات والمواصلات والاتصالات.
- ٢- سيادة القطبية الأحادية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وسيادة فلسفة واحدة سياسية واقتصادية وفكرية وهي: الليبرالية بمضمونها الغربي المتوحش.
- ٣- الاتجاه العام إلى التشابه بين النظم التي تحكم دول العالم سواء في المجال الاقتصادي (سيادة الليبرالية الرأسمالية)، أو في المجال السياسي (سيادة الديمقراطية وسقوط الشمولية، والاتجاه العام

(٣٣٣) للمزيد حول العوالم والحياة الثقافية،، وحول مفهوم وتعريفات العوالم،، راجع الدراسة التي أعدها: جعفر عبد السلام بعنوان (رؤية رابطة الجامعات الإسلامية للعوالم: منشورة في سلسلة فكر المواجهة الصادر عن رابطة الجامعات الإسلامية تحت عنوان: الإسلام والعوالم: العدد ١٠ سنة ٢٠٠٤ ص ص ١٦-١٧.

للمطالبة بحريات وحقوق الإنسان وتعدد الأحزاب وتداول السلطة...)، ولا شك أن هذه هي المثاليات العالمية، والمطلوب سيادتها وتطبيقها في كل دول العالم.

٤- زيادة قوة المنظمات الدولية: الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، والمحاكم الدولية، وأصبحت أداة في يد الغرب - وخاصة أمريكا - وأصبحت توجه لصالح القطب الأوحده المسيطر، وحسب رؤيته الاقتصادية والسياسية والفكرية والثقافية.

٥- ظهور منظمات عالمية جديدة، وأهمها منظمة التجارة العالمية، والتي كانت خاتمة لجولات الجات، التي امتدت عقوداً من السنين، وكانت هذه المنظمة تويجاً للعولمة الاقتصادية، أو فرض الرأسمالية التوحشة، والشركات متعددة الجنسيات العملاقة، شروطها ومتطلباتها علي كل دول وحكومات العالم، مما أدي بالدول القوية اقتصادياً إلى المزيد من القوة علي حساب الدول الفقيرة والضعيفة اقتصادياً.. وهذه المنظمات هي تويج للمهمنة الاقتصادية وتآكل سيادة الدول، وآلية في يد الشركات الدولية العملاقة للمهمنة والسيطرة، وكسر كل الحدود والفواصل بين المنتج والمستهلك في كل أنحاء العالم، وذلك في مجالات الإنتاج والخدمات، فالأغنياء يزدادون غني والفقراء يزدادون فقراً.

٦- بروز الكيانات الكبرى للدفاع عن مصالح أعضائها، مثل الناتفا، ويضم دول أمريكا الشمالية والاتحاد الأوروبي، الذي يضم حتي الآن ٢٧ دولة، (والأسيان) ويضم دول الشرق الأقصى ومن بينها اليابان.. ويجب هنا أن نلاحظ ازدياد التجمع لكل دول العالم في كيانات كبرى باستثناء دول العالم العربي والإسلامي<sup>(٣٣٤)</sup> علي الرغم من أنهما هي الوحيدة التي يجتمع لها كل مقومات التكامل والتضامن والتعاون (مطلب ديني ووحدة العقيدة والقيم واللغة والجوار الجغرافي، والتكامل المناخي والاقتصادي فيما يتعلق بالموارد والعلماء والمال وقوة العمل..)، ومع هذا ازدادت هذه الدول تفككاً علي الرغم من وجود منظمات قادرة علي تحقيق التكامل، مثل: جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ورابطة العالم الإسلامي، ومؤسسات أخرى كثيرة.. ولهذا ظلت هذه الدول تناقش قضايا العولمة وآثارها السلبية دون أن تحاول ركوب قطار العولمة والاستفادة من إيجابياتها العديدة.

(٣٣٤) راجع دراسة سمير عبد العزيز بعنوان: التكتلات الاقتصادية الإقليمية في إطار العولمة - مكتبة الإشعاع الفنية ٢٠٠١ . وراجع السيد ياسن: الحوار الحضاري في عصر العولمة . فحصة مصر ٢٠٠٢ .

٧- النمو العملاق للشركات متعددة الجنسيات التي يقدر عددها بـ ٤٧ ألف شركة، منها شركة ميتسوبيشي، وبلغت قيمة إنتاجها منذ خمس سنوات أكثر من ٧٠٠ مليار دولار، وهي شركات عابرة للقارات ليس لها وطن أو مقر ولا جنسية، لها فروع في كل دول العالم، كل منها تأخذ جنسية الدول المقامة فيها، لها حرية الحركة والتجارة والتنقل بلا حدود سياسية أو ضوابط اقتصادية وجغرافية، والعديد منها نشأ نتيجة الدمج بين شركات كبرى، أوروبية وأمريكية ويابانية ودول أخرى.

٨- لا شك أن هذه المتغيرات كان لها أثرها علي مفهوم ومضمون سيادة الدول، هذه السيادة تعرضت للتآكل بفعل ثورة الاتصالات والمواصلات، وتنامي استخدام الإنترنت، وعولمة الفضاء بانشار القنوات القضائية، والمنظمات الدولية العملاقة التي تفرض شروطاً والتزامات، واجب علي الدول الالتزام بها وإلا تعرضت لعقوبات اقتصادية (٣٣٥)، بل وعقوبات سياسية وعسكرية، وأماننا ما حدث في العراق واحتلاله باسم مكافحة الإرهاب، وهناك أفغانستان وهناك التدخل في السودان، بل ومطالبة المحكمة الدولية باعتقال رئيس دولة بتهم ما أنزل الله بها من سلطان (السودان)، وهناك الصومال، ومحاولات إدخال دول جوار الاتحاد السوفيتي في حلف الأطلسي، وفرض عقوبات علي أية دولة تخرج عما يطلق عليه الشرعية الدولية، ولنا أن نساءل عن هذه الشرعية (٣٣٦): من يحددها؟ ومن المستفيد منها؟ ومن يفرضها؟ والإجابة حالياً في ظل الظروف العالمية المعاصرة هي القطب الأمريكي الأوحده المسيطر.

والعولمة لها عدة تجليات منها:

١- العولمة الاقتصادية، وهذه حقيقة واقعة تجسدها الشركات العملاقة عابرة القارات، ومنظمة التجارة الدولية، وتحقيق العلاقة المباشرة بين المنتج والمستهلك في كل دول العالم، سواء المنتج للسلع أو للخدمات.

(٣٣٥) راجع دراسة ليطرس غالي: بعنوان الديمقراطية هي الحل لمخاطر العولمة - مركز الأهرام لترجمة والنشر ٢٠٠٢

(٣٣٦) راجع أحمد أنور: الآثار الاجتماعية للعولمة الاقتصادية مكتبة الأسرة ٢٠٠٤ - انظر الفصل السابع والثامن ص ص ٢٢١ - ٢٧٦

٢- العولمة الإعلامية وقد تحققت بفعل هذا النمو السرطاني للقنوات الفضائية والإنترنت، فهناك الآن مجتمع مدني عالمي مؤثر في قضايا الاستبداد والاعتداء علي الحقوق وتصوير الأحداث في كل أنحاء العالم، وفضح الدول الممارسة للظلم والاستبداد والاضطهاد والتطهير العرقي.

٣- العولمة السياسية، وهي أيضا أمر ملموس يتمثل في سقوط الشمولية والنظم التسلطية وفضحها، ومطالبة كل الدول بأعمال نظم للتعددية والديمقراطية وتداول السلطة، وفضح الدول التي لا تمارسها. لكن من مظاهر العولمة السياسية أيضا مساندة الدول الأقوى للاستبداد في كثير من دول العالم حماية لمصالحها الاقتصادية والاستراتيجية.

٤- العولمة الثقافية، وهي في نظري مستحيلة التحقق، لكن هناك محاولات شيطانية من قبل الغرب لفرضها علي دول العالم، ومنها الدول الإسلامية، وقد نجحوا في بعض الجوانب، مثل إقبال الشاب علي نوعيات من الأكل والشرب واللبس، وبعض مجالات الاهتمام التي تشمل الجنس والعلاقات بين الذكور الإناث، ورؤية الأفلام والمسلسلات.. لكن المستحيل في نظري نجاح أنصار العولمة في إحداث السيولة الثقافية، وطمس معالم آلاف الثقافات العالمية، والقضاء علي التنوع الثقافي العالمي الخلاق، من أجل سيادة ثقافة الغرب. كل هذا يزعم أن التنمية الاقتصادية تحتم ذلك (٣٣٧).

**العولمة الثقافية أم التنوع الثقافي الخلاق:**

والثقافة تتضمن الأديان، والتراث الثقافي للشعوب، ومنظومة القيم واللغات والعادات والتقاليد، وأساليب الحياة وطرق التفكير، والنظرة للإنسان والكون والحياة إلى جانب مختلف أنواع الأدب والعلوم والقيم بأنواعها المختلفة.. هذه الأبعاد الثقافية لا يمكن توحيدها أو إلغاءها، وهي تتصل بأبعاد التنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد أكدت الأمم المتحدة علي هذه الأبعاد الثقافية وارتباطها بالتنمية، وحددت الفترة من ١٩٨٨ - ١٩٩٧ ليكون العقد العالمي للثقافة (٣٣٨)، وطرحت تساؤلات مهمة يجب الاسترشاد بها في علمنا الإسلامي، منها: ما علاقة الثقافة بتطور وتنمية الشعوب في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط والعالم العربي، ومنها: هل هناك موروثات ثقافية تسهم في الإسراع بالتنمية، وأخري تعيقها،

(٣٣٧) راجع دراسة مهمة لعبد العزيز التويجري: بعنوان: العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي - العدد

(١٠) سلسلة فكر المواجهة - رابطة الجامعات الإسلامية ٢٠٠٢ ص ٥٣ - ١١٠

(٣٣٨) نبيل السمالوطي: التنمية بين التوجهات الدينية والوضعية: مصدر سابق الفصل الرابع

وما أثر هذه العوامل في انطلاق حركة التنمية في بعض الدول كاليابان والصين وكوريا والنمور الآسيوية، وفي تعويق هذه الحركة في دول أخرى مثل بعض الدول الإفريقية؟ وهل التنوع البشري (العرقى والثقافي والديني والاجتماعي والاقتصادي... إلخ) هو الذي يدعم التنمية أم أن الصراع الثقافي والحضاري بين الشعوب قدر لا مفر منه؟

وقد جاء في تقرير لجنة التنمية الثقافية في الأمم المتحدة برئاسة (دي كويلار) والذي بدأ ١٩٩٣ م وانتهى ١٩٩٦ م تحت عنوان مهم وهو: تنوعنا البشري الخلاق Our creative Diversity (٣٣٩).

وقد تم مناقشة التقرير في منظمة اليونسكو برئاسة (فردريكو مايور) بالتعاون مع الحكومة السويدية في نهاية مارس وأول إبريل ١٩٩٨ م.. جاء في تقرير المناقشة بعض المبادئ التي تفيدها في دراسة المدعمات والمعوقات الثقافية للتنمية الاقتصادية في العالم العربي والإسلامي، ولعل هذه المبادئ يرجع الفضل فيها للفكر الإسلامي أو العقل المسلم المبدع وأهم هذه المبادئ:

١- لا تعني التنمية مجرد الحصول على المزيد من السلع والخدمات، لكنها تعني ترايد الحرية في اختيار أسلوب الحياة، وإذا انفصلت التنمية الاقتصادية عن سياقها الإنساني والثقافي تصبح كارثة وجسداً بلا روح.

٢- الحكومات لا يمكنها تحديد ثقافة الشعوب، ولكن قد يمكن توجيهها واستثمارها لصالح التنمية.

٣- الحرية الثقافية في جوهرها حرية جماعية وليست فردية، فمن حق كل جماعة إنسانية أن تتخذ ما تراه من أساليب الفكر والحياة، وأن الحرية الثقافية هي الضمان الرئيس لكل الحريات الأخرى.

٤- في عالمنا اليوم يسكنه أكثر من عشرة آلاف جماعة متميزة تعيش في حوالي مائتي دولة، ولهذا يجب التأكيد على حقوق الجماعات الثقافية المختلفة، ومنع هيمنة إحدى الطوائف أو المذاهب

(٣٣٩) قام المشروع القومي للترجمة التابع للمجلس الأعلى للثقافة المصرية بترجمة هذا التقرير،،، وقدم له جابر عصفور،،، وقد أكد في هذا التقديم أن التنوع البشري الخلاق هو مبدأ الفعل الابتكاري في الثقافة،،، وهو الذي يؤكد علي أهمية سيادة مفاهيم الحرية والتسامح وحق الاختلاف واحترام المغايرة .. وأكد أنه بعد فترة زمنية سيعيش أغلب سكان العالم في مدن لها خصائص مشتركة،،، مما يتطلب تأصيل نوع جديد من الأخلاق العالمية التي تقوم علي التفاعل لا على الصراع،،، وعلي الحوار لا على المواجهة بين أطراف متكاملة .

أو الأعراف أو الأديان علي غيرها، ويجب التركيز علي الامتزاز الثقافي داخل كل أمة، ودعم الإحساس بالأمة بوصفها مجتمعاً مدنياً يجمع بين مختلف الطوائف والأعراف والثقافات الفرعية داخلها.

٥- يجب الاهتمام بوضع سياسات ثقافية وربط الثقافة بالتنمية، وتشجيع الأنشطة المتعددة للثقافات، والتنوع الثقافي يمكن أن يكون مصدراً للإبداع.

٦- ضرورة دعم ثقافة الديمقراطية، فالمشكلات الكبرى في العالم، كالفقر والبطالة والجوع والتخلف والمرض والتحجر الفكري والانعزال الاجتماعي... إلخ هي أثر من آثار عوامل ثقافية تدعم الأناثية والتعصب والكراهية والحقد والانعزال والتحجر الثقافي.

٧- كل هذا يعني أهمية التفاعل الثقافي، وأهمية منظومة القيم المشتركة والقواسم الثقافية المشتركة، سواء داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات، وأهمية قبول الآخر والدخول معه في حوار يعود بالنفع علي الجميع، وهذه دعوة للتعايش السلمي والسلام الاجتماعي، وثقافة التعايش والبحث عن أرضية مشتركة يعيش عليها الجميع في مودة ومحبة، تركز علي القواسم المشتركة بين كل الثقافات والأديان والفلسفات، وبهذا يتحقق الحوار بدلا من الصراع<sup>(٣٤٠)</sup>.

هذه الأفكار المطروحة في تقرير الأمم المتحدة حول التنوع البشري الخلاق يحتاج إلى مناقشة نقدية فاحصة من جانب علماء المسلمين في ضوء مبادئ شريعتنا الإسلامية، ونحن في حاجة أيضا إلى تفعيل ثقافتنا الإسلامية، التي تجعل من العلم ومن العمل ومن الإنجاز ومن الإبداع ومن التفكير، ومن تطوير وتحسين الاقتصاد والتعليم والصحة، وتحسين نوعية الحياة الإنسانية، تجعل من هذا كله عبادة لله بالمعني الواسع، بشرط توافر النية والانطلاق من المنطلقات الإسلامية من جهة، والالتزام بالضوابط الشرعية من جهة أخرى، وكل هذا يطرح بالضرورة قضية التنشئة الاجتماعية والتربية الإسلامية وبناء الشخصية الإسلامية القادرة علي التفاعل مع معطيات العصر أخذاً وعطاء، علي خلفية المعيارية الإسلامية التي تحدد ماذا نأخذ وماذا نترك، أو الجمع بين الأصالة والمعاصرة، فلا حاضر لأمة تجهل ماضيها، ولا مستقبل لأمة تنسي فضائلها، ولا أمل في فئضة إلا بإعادة إحياء قيمنا الإسلامية الأصيلة في إطلاق طاقات العلماء وحرية الفكر والإبداع والعمل المنتج، وإطلاق طاقات

(٣٤٠) ارجع إلى ترجمة المجلس الأعلى للثقافة وقراءة تقرير (تنوعنا الخلاق) مصدر سابق.

شباب الأمة للبناء والتعمير والنهضة الشاملة في ضوء سياسات اجتماعية واقتصادية وتربوية واضحة، وخطط عملية محددة.

وإذا كان الصدام بين الدين والعلم، أو بين العقل والنقل في الغرب كان حتمياً، ولم يكن من الممكن لأوروبا أن تهض إلا إذا تخلصت من التسلط الكهنوتي، الذي يحول دون ظهور العلماء والمبدعين، والاستفادة بفكرهم، فإن الإسلام يجعل من طلب العلم ومن الإبداع في كل المجالات العلمية والتكنولوجية عبادة لله، يتقرب بها الناس إلى خالقهم، إذا التزموا بمنظومة العقيدة والقيم العليا في الإسلام، وفي مقدمتها التقوي والعدل وحقوق الإنسان وحرياته، وعدم الاعتداء والدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة.. قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩) (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هو: ٦١).

**العولمة الثقافية.. أنصارها وأعداءها:**

نخلص مما سبق أنه إذا كان العلم لا وطن له، فإن الثقافة خاصة لصيقة بكل جماعة أو مجتمع لا يمكن عولمتها، وإذا كانت العولمة بوصفها انتشاراً لخصائص علمية وتكنولوجية واقتصادية وسياسية واجتماعية محددة في كل المجتمعات المعاصر، بغض النظر عن التباينات الثقافية (الدينية والعرقية والقبلية والفتوية..) فإن هناك خطوطاً حمراء فيما يتصل بالجوانب الثقافية.

ولكن علي الرغم من هذه الحقيقة التي تؤمن بها، فإن هناك اتجاهات يتبناها علماء ومفكرون في الغرب يدعوا إلى فرض نوع من الهيمنة الثقافية علي كل دول العالم، تعزيزاً لمصالحها الاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية.. وقد أشار دافيد دويشكوف أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا، في دراسة له بعنوان في مديح الإمبريالية الثقافية<sup>(٣٤١)</sup> أن الولايات المتحدة الأمريكية تهيمن فعلاً علي حركة المرور الكونية في مجال المعلومات والأفكار، وهو يؤكد تخوف العديد من الأمم الأوروبية والأمريكية والآسيوية من هذه الحقيقة، لذا نجد أن فرنسا وكندا وإيران والصين وسنغافورة تصدر العديد من القوانين التي تحكم وتقيد بل وتحظر أحياناً نقل أو تداول هذه المواد الأمريكية.. كل هذا تجنباً للتلوث الفكري والثقافي الذي يستهدفه أصحاب المصالح الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية والمسيطرون علي الشركات متعددة الجنسيات.

(٣٤١) قام بترجمتها إلى العربية أحمد خضر،، انظر: "سامح كريم عولمة الثقافة تكشف عن نفسها بأقلام كتابها،، الأهرام ٢٨ يوليو ١٩٩٨،،، ص ٢٧ .

وأغلب مثقفي العالم يرفضون التبرير الساذج الذي يقدمه " دويشكوف " لعولمة الثقافة الأمريكية بأنها مزيج من المؤثرات والمناهج من مختلف أنحاء العالم انصهرت في وسط يسمح بازدهار الحريات الثقافية والاجتماعية والشخصية، وأن ما هو في صالح أمريكا هو في صالح العالم كله !! ويسير في هذا الاتجاه المنحاز للعولمة الأمريكية مجموعة كبيرة من مفكري أمريكا والعالم، لخصها سامح كريم من خلال عرضه لدراسة " دانيال دوبرنز " بعنوان (ياعولمي العالم اتحدوا) (٣٤٢)، عرض فيها خمسة كتب (٤)، هي: الجهاد ضد السوق الكونية) لنيامين باربر، ودراسة فوكوياما بعنوان (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، ودراسة هنتجتون بعنوان (صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي)، ودراسة روبرت كابلا بعنوان (نهاية الأرض رحلة إلى بداية القرن الواحد والعشرين)، ودراسة كنيش أو ماي بعنوان (نهاية الدولة القومية).. ولا شك أن هناك نقاط التقاء كثيرة بين هذه الدراسات، أهمها:

- ١ - فقدان الدول القومية نفوذها وتأثيرها السياسي بسبب تنامي ظاهرة تآكل السيادة.
- ٢ - تنامي قوتي السوق الكونية هي العامل الرئيس في تنامي فقدان الدول نفوذها وسيادتها.
- ٣ - هذه القوي يمتد أثرها إلى كل الدول المتقدمة والنامية والفقيرة دون استثناء.
- ٤ - بروز الحاجة إلى علوم اجتماعية جديدة قادرة على تفسير هذه المستجدات الحضارية، فمنظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية التقليدية عاجزة عن التفسير والتحليل وفهم هذه المتغيرات. لكن في مقابل هذا الاتجاه الداعم للعولمة الشاملة الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية والإعلامية.. هناك اتجاه مناهض للعولمة في كل أنحاء العالم، ويتمثل هذا في حركات (أنتي دافوس Anti Davos) ويمكن متابعتها على الانترنت، وفي دراسات كثيرة: منها ما يلي:

- ١ - دراسة الكاتب الصيني " رواسي " بعنوان (نعم للعولمة لا للغربة).
  - ٢ - دراسة المفكرين يابانيين هما: هاماتان نوبورو وآلين جيلرم بعنوان: اليابان هي العالم الآن).
  - ٣ - دراسة للباحثة التايوانية ماري سيبيل دفين بعنوان (تايواند ألقمة جارية).
  - ٤ - دراسة للكاتب الأفريقي جورج تادونكي بعنوان (إفريقيا ليست وحدها في العالم).
- هذه فقط نماذج من آلاف الدراسات التي تركز على الأصالة الثقافية والخروج من محاولة

التهميش.

وفي مصر صدرت دراسات عديدة، مثل دراسة زكي رمزي الذي يقول عن الثورة التكنولوجية والعلمية المعاصرة أنها انتصار للتكنولوجيا وضياح للإنسان<sup>(٣٤٣)</sup>.

وهناك جهود في إطار الأمم المتحدة للدفاع عن التعدد الثقافي الخلاق بين الثقافات، وهذا ما حدا بمنظمة اليونسكو إلى طرح شعار التسامح Tolerance لتنمية قدرات أبناء الثقافات المختلفة علي قبول الآخر وعدم افتعال معارك وخلافات معه، واكتساب القدرة علي نقد الذات بشجاعة دون تحيز، واكتساب القدرة علي تبادل الأدوار Role Reversal، واكتساب القدرة علي حل الخلافات بين الشعوب بعيداً عن الأساليب العدوانية، وبعيداً عن الاستعلاء واحتقار الآخر.

والناظر في هذه المبادئ يجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أكدت عليها جميعاً من خلال الضوابط الشرعية، فالعددية سنة من سنن الله، ويجب ألا يجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، ويجب أن نبر ونقسط لغير المسلمين داخل المجتمع المسلم، بشرط أن يكونوا مسلمين ومعهدين لا يؤذون المسلمين، ونحن مأمورون بعدم سب آلهة الآخرين المخالفين لنا في الدين، ومطالبون بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومطالبون باحترام حقوق الإنسان وحياته، مسلماً كان أم غير مسلم، والتسامح في الفكر الإسلامي.. وهذا ما أكده العديد من المنصفين من كتاب الغرب، وهذا أيضاً ما هو معروض في فصول هذه الدراسة بشيء من التفصيل.

ما نريد أن نؤكد عليه هنا، هو أن هذه المبادئ حول حقوق الإنسان وحياته والتسامح والديمقراطية ودولة المؤسسات، والقيم الداعمة للتنمية، والمرتكزات الثقافية للتنمية ونهضة المجتمعات، ومفاهيم قبول الآخر، وحوار الحضارات، والاتجاه السلمي في تسوية المنازعات، والبعاد عن العنصرية والاستعلاء واحتقار المخالفين في الدين واللغة والجنس واللون... هذه المبادئ وغيرها لها تاريخ ميلاد حقيقي هي رسالة الإسلام، فأساسها القرآن والسنة، وقد تم تطبيقها في دولة الرسول ومن بعده في عهد الخلفاء الراشدين والعصور التالية.

لكن مفهوم هذه المبادئ، ومضامينها الإسلامية أكثر رحابة وسعة وأخلاقية وإنسانية، من مفهومها ومضامينها في الفكر الوضعي، والسبب ببساطة أنها في الإسلام تستند إلى مبادئ عليا نزل

بها الوحي، وأمر بها خالق الإنسان وكل الموجودات وهو أعلم بكل ما خلق ومن خلق (٣٤٤) (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك ١٤)

### التزاوج بين الكائنات سنة من سنن الله في كونه

قدم الإسلام للبشرية حقيقة أودعها الله في كل مخلوقاته وهي التزاوج.

فالتزاوج بين البشرية سنة من سنن الله، وهو آية من آيات الله في المجتمع الإنساني. يقول تعالي (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم: ٢١). لكن الزواج ليس وقفاً علي البشر، لكنه يمتد ليشمل كل مخلوقات الله تعالي: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (المرعد: ٣).

يقول صاحب "الظلال" (٣٤٥) (المشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر عن طريق علمهم وبختمهم إلا قريباً، وهي أن كل الأحياء - وأولها الإنسان - تألف من ذكر وأنثي، حتي النباتات التي كان مظهرها بأن ليس لها من جنسها ذكوراً؛ تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر).

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة - حقيقة الزوجية - في كل المخلوقات في العديد من المواضع. قال تعالي: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (هود: ٤٠) وقال تعالي: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الذاريات: ٤٩)

### الأسرة المسلمة وما يواجهها من تحديات

(أ) حول مؤسسة الأسرة كضرورة اجتماعية وثقافية:

نحن لسنا في حاجة إلى تأكيد أن الإسلام ركز تركيزاً علي الأهمية القصوي لمؤسسة الأسرة، بوصفها الأساس الأول لبناء الفرد وبناء الجماعة، وبناء المجتمع المحلي والعالمي، وهي المرتكز الأساس للتنشئة الاجتماعية، التي توهم الأفراد لوظيفة الاستخلاف وعمارة الأرض، والدعوة إلى الله، وتنفيذ التكاليف الشرعية، وتطبيق قيم الحق والعدل والمساواة، والدفاع عن منظومة القيم العليا

(٣٤٤) راجع نبيل المسالوطي: المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع الطبعة الثانية - مكتبة دار الشروق جدة

١٩٨٥ ص ٦١ وما بعدها

(٣٤٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٩٢، المجلد الرابع، ص ٢٠٤٦.

ومكارم الأخلاق، والدفاع عن المستضعفين ولا يمكن غرس العقيدة وزرع القيم ومكارم الأخلاق، وتنشئة الأطفال على سلوكيات وعلاقات قوية كريمة راقية إلا من خلال مؤسسة الأسرة في الإسلام فهي المسئولة عن مجموعة من الوظائف لا يمكن لأي من المؤسسات الأخرى القيام بها. وأهمها:

١- وظيفة إرضاء الله وتنفيذ ما أمر به: فالزواج أمر إلهي، وقد وجه رسولنا أنكرم ﷺ علي التكبير به في قوله ﷺ: " يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج.. الحديث ". وقال ﷺ: " تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة ". وهو آية من آيات الله في الخلق (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم: ٢١)

٢- الوظيفة النفسية: وهي إشباع حاجة الإنسان - ذكراً أو أنثى - إلى الحب العفيف، وإلى السكن والمودة والرحمة والاستقرار النفسي، والاطمئنان بوجوده داخل جماعة قراية تحبه ويجب أعضائها. وتشبع لديه الحاجات العاطفية.

٣- وظيفة إشباع الحاجات الجسمية البيولوجية للإنسان بطريق يرضي الله ورسوله. فقد اقتضت إرادة الله أن يخلق الإنسان من قبضة من طين، وهي أساس الجانب المادي الشهوي للإنسان، ومن نفخه من روح الله، هي أساس الجانب الروحي للإنسان، وحاجته للارتباط بالله الخالق الرازق البارئ المصور الرحمن الرحيم.. فالإنسان ليس مثل الملائكة أرواح خالصة (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم: ٦) وليسوا شهوات خالصة مثل الدواب والأنعام. وهذا الإعجاز في خلق الله للإنسان يسمح له بإشباع شهواته، ولم ينكر عليه الله هذا الإشباع؛ لأنه هو الذي خلقه علي هذا النحو، لكنه سبحانه وتعالى نظم له الطرق النظيفة العفيفة المشروعة لإشباعها من خلال النكاح (٣٤٦) الشرعي. قال تعالى: (زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) (وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء ١-٢) وقال تعالى: (نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ

(٣٤٦) للمزيد من المعلومات حول النظام الإسري في الإسلام مقارنا بالنظم الوصيه راجع الفصل الثالث من دراسة للمؤلف بعنوان بناء المجتمع الإسلامي ونظمه الطبعة الرابعة ٢٠٠٥ - دار الشروق جده ص ص ٧٥ -

لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي سَنُتِمُّ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوا رَبِّكُمْ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (البقرة ٢٢٣).

٤- وظيفة إشباع الحاجات الفطرية (الغرائز) التي أودعها الله في الإنسان، وهي الحاجة للولد وحب الإنجاب والفرح بالذرية. فهناك غريزة الأمومة، وهناك غريزة الوالدية. يقول تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف ٤٦)

٥- إنجاز الوظائف التربوية: فقد اقتضت مشيئة الله أن تكون الطفولة الإنسانية أطول طفولة بالنسبة لكل المخلوقات اقتضت. أيضا أن تكون غريزة الجنس عند الإنسان مستمرة علي مدى العام كله، وليست موسمية كما هي عند الحيوانات. وهذا أحد العوامل المهمة التي تقوم عليها الأسرة المستقرة القادرة علي تربية النشء وإعدادهم الإعداد الجيد جسيمياً، ونفسياً، عاطفياً واجتماعياً. وقبل هذا غرس العقيدة الصحيحة وخرس القيم العليا ومكارم الأخلاق والسلوكيات القويمة، من خلال مجموعة من الآليات والأساليب، وفي مقدمتها: القدوة الصالحة، والحوار الذي يراعي القدرة علي الاستيعاب للنشء، وتوفير الجو النفسي والروحي والاجتماعي الذي يكتسب النشء من خلاله القدرات والقيم والسلوكيات والمعارف التي تسهم في تشكيل شخصيته روحياً وجسيمياً ونفسياً واجتماعياً ومهنياً.. الخ.

٦- وإذا كانت الأسرة في الفكر الإسلامي هي المسئولة عن تشكيل الإنسان الصالح، والمواطن المخلص لدينه ووطنه، فإنها تقوم بوظائف إشباع الحاجات الاقتصادية لأعضاء الأسرة من غذاء وشراب وملبس ومختلف الوظائف الاقتصادية للأب والأم والأبناء.

٧- هناك الوظائف السياسية: فالأسرة هي التي تشكل التوجه السياسي عند الأبناء، فإذا كنا نتحدث عن ثقافة الحرية وثقافة الاستبداد، وعن ثقافة الديمقراطية والحوار، وثقافة التسلط والانفراد بالرأي، وعن أدب الحوار، وأدب الاختلاف، وثقافة النقد المستنير. فإن الأسرة هي المسئول الأول عن غرس وتنمية هذه التوجهات المتناقضة لدي الأبناء، فالوظيفة السلطوية للأب ومدي سماحه للأبناء بالحوار والمناقشة والنقد والمعارضة، ينعكس علي شخصية الأبناء وموقفهم من كل نماذج السلطة فيما بعد، اعتباراً من سلطة المدرس ورئيس العمل إلى السلطة المتصلة بالدولة حكومة ورياسة. والأسرة وهي أهم المؤسسات في تنشئة وتعليم وتدريب الأطفال علي ممارسة حرية الرأي وأدب الاختلاف وثقافة الحوار وثقافة النقد المستنير المهادف.. الخ

٨- هناك الوظيفة الاجتماعية والديمقراطية: فالأسرة هي المؤسسة الشرعية والقانونية الوحيدة لإمداد المجتمع بأعضاء جدد، وبالتالي استمرار المجتمع سواء علي المستوى الديمجرافي أو علي مستوى الاستمرار الثقافي (اللغوي والنظامي والتنظيمي والقيمي والسلوكي). وهذا ما تحاول بعض الاتفاقات (٣٤٧) الدولية مثل اتفاقية (السيدار)، وتوصيات بعض المؤتمرات الدولية مثل بيكين ١٩٩٥ بيكين + ٥ وبيكين + ١٠ والكثير من مؤتمرات المرأة في الأمم المتحدة.. أن تشوّهه وتغيره. ولاشك أن تطبيق هذه الاتفاقات والمؤتمرات الدولية يمثل خطورة عظمي علي أمن الإنسان واستقراره وصحته النفسية، وعلي أمن المجتمعات والدول وحتى علي الاستقرار العالمي. كل هذا يعني أن مؤسسة الأسرة، وهي مؤسسة أثبتت كل الدراسات التاريخية والانثروبولوجية أنه لم يخل منها مجتمع، هذه المؤسسة تحقق أهدافا جوهرية وحيوية تتصل بالأمن الديني والقيمي، والأمن الاجتماعي، والثقافي والنفسي، والسياسي، والاقتصادي، فضلا عن الأمن الديمجرافي والبيولوجي. ولهذا اهتم بها القرآن والسنة، كما فصل في الكثير من أسسها وثوابتها ومعاييرها.

#### (ب) الاتجاهات العالمية لتفكيك مؤسسة الأسرة:

ترتكب العديد من الأخطاء - بل من الجرائم - تحت عنوان أو واجهة ضرورة التجديد في الحياة الاجتماعية وفي مجال العلاقات الإنسانية، ومنها التجديد في مجال الأسرة.

إن ديننا يؤكد علي أهمية التجديد، لمتابعة متغيرات كل عصر، رسولنا العظيم ﷺ يقول: "إن الله يبعث لهذه الأمة علي رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها" (٣٤٨) ولكن التجديد في المنظور الإسلامي يعني التوافق مع متغيرات العصر وضبطه بالضوابط الشرعية. وإطلاق كل طاقات التقدم الإنساني والاجتماعي والعلمي والتقني، القادرة علي تحقيق واجبات الاستخلاف في الأرض، وتحسين نوعية حياة الإنسان علي الأرض، في ظل مجموعة من الثوابت التي تدفع إلى الإمام والتقدم، وتحول دون الانحراف أو الصراع أو التصادم أو الزيف عن جادة الطريق. هناك إذن ثوابت إسلامية هي العاصم من الانحراف وهي:

(٣٤٧) راجع: أبحاث كل من نهي القاطرجي: قراءة إسلامية في اتفاقية القضاء علي جميع أشكال التمييز ضد المرأة (حالة لبنان)،،،، وبحث تحفظ ليبيبا علي اتفاقية منع جميع أشكال التمييز ضد المرأة لسنة ١٩٧٩ (السيد او) بين القانون والفقه والقضاء.. مقدمة في المؤتمر الدولي بشأن أحكام الأسرة بين الشريعة الإسلامية والاتفاقات الدولية ٧-٩ أكتوبر ٢٠٠٨. - جامعة الأزهر - طنطا .

(٣٤٨) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم: باب ما يذكر في قرن المائة وأخرجه أحمد في المسند ٨٨ / ٢ .

- ١- الأصول العقائدية وهي أركان الإيمان الستة، وأركان الإسلام الخمسة.
- ٢- المقاصد الشرعية وهي حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والعرض.
- ٣- الأحكام الشرعية قطعية الثبوت والدلالة، مثل تحريم الزنا والربا وأحكام الأسرة... الخ.
- ٤- القيم الأخلاقية - مثل التقوى، والصدق، والعدل... الخ.
- ٥- الفرائض والعبادات المفروضة شرعاً.

وأي تجديد في مجال الأسرة أو غيره لا بد من الالتزام، بل والانطلاق من هذه الثوابت التي تعد أساساً لنيل رضا الله، وأساساً للسواء، وأساساً للحيلولة دون الانحراف علي كل المستويات.

### الإعجاز الإلهي في مجال بناء الأسرة ووظائفها

لن تفصل القول في النظام الأسري في الشريعة الإسلامية، فهذا مطروح بالشرح المستفيض في كتب الفقه عامة وفقه الأسرة بشكل خاص، وفي كتب ومفردات الثقافة الإسلامية، فالهدف هنا هو إبراز عطاء الإسلام المتميز في إقامة نظام للأسرة يستند إلى مجموعة من الأسس والقيم والمعايير والضوابط التي تكفل سلامة الإنسان والمجتمع، سلامة الإنسان جسمياً وروحياً ونفسياً وسلوكياً، ومكارم الأخلاق. وهذا هو أساس قيام المجتمع المتميز القوي بإيمان وقيم أعضائه، القوي علمياً وتكنولوجيا واقتصادياً واجتماعياً وتكنولوجيا.. الخ المجتمع الذي ينعم بالأمن المادي والمعنوي، المجتمع الذي يسارع في الخيرات ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، المجتمع الذي يأمنه جيرانه، ويسارع في تجديدهم، المجتمع الذي يطبق قيم الحق والعدل والتكافل والإخاء والرحمة... وهذه القيم وتطبيقها هي محصلة التنشئة الاجتماعية للأطفال في أسر صحية سليمة، تسودها المودة والرحمة والسكن.

ولا أدل علي مركزية النظام الأسري في الإسلام من عدة أمور نوجزها فيما يلي.

أولاً: أكثر النظم التي عني القرآن بالفضل فيها هي الأسرة فقد أمر الله بالزواج، وتزويج الشباب. قال تعالي ﴿ أَنْكِحُوا الْيَتَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ ﴾ (النور ٣٢). وأوجب القرآن معاشرَةَ الأزواج كل للآخر بالمعروف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُبُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء ١٩)

وفصل القرآن في ضرورة الزواج وعدم المعاشرة إلا بعد عقد الزواج. كذلك فصل في حسن تبعل الزوجة لزوجها، وفصل في أساليب ومضامين تربية الأبناء (سورة لقمان وغيرها)، وفصل في مواجهة الخلافات والنزاعات الأسرية قال تعالى (واللأبي تخافون شؤرهنَّ فِعْطُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا) (النساء ٣٤)

وقال تعالى (وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا) (النساء ١٢٨) وفصل القرآن طريقة التحكيم في الخلافات الزوجية (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) (النساء ٣٥). كل هذا يدل على أن القرآن يحرص على سلامة الأسرة وعدم انفصام عراها، لما لهذا من أثر سيئ مدمر على الزوجين والأبناء والمجتمع. وقد فصل القرآن مسألة الطلاق كحل أخير عندما تستحيل الحياة الزوجية، وفصل فيما يترتب على هذا من حقوق لكل أطراف الأسرة. وفصل القرآن الكريم في بيان الحرمات من النساء، بسبب القرابة، والمصاهرة، والرضاع، وفصل في نظام التحريم المؤقت والنهائي<sup>(٣٤٩)</sup> كذلك فقد فصل القرآن الكريم قضية الميراث وحدد الأنصبة بدقة كاملة معجزة، ولم يتركها لتقدير الناس، حتى لا يحدث جور أو ضلال أو ظلم. وفصل القرآن والسنة الأسس البنائية للأسرة، وأهمها.

أ- التعرف والإختيار - فأوجب النظر إلى المخطوبة والخطيب، ووضع معايير للاختيار. فالمرأة تنكح لأربع كما أخبرنا النبي ﷺ، لماها وجمها وحسبها ودينها. وأكد ﷺ على إعلاء شأن الدين (فاظفر بذات الدين تربت يداك) والمعايير الأساس عند اختيار الزوج الدين والخلق وهذا ما امرنا به الرسول ﷺ

ب- الرضا الكامل من الطرفين - وهذا يعني الموافقة الصريحة لكل من الرجل والمرأة، دون أي ضغط من الأهل أو المجتمع أو أي سلطة أخرى. وهذا ما يعرف بالإيجاب والقبول.

ج- الإشهار أو الإعلان حتى يكون الناس على علم بقيام أسرة إسلامية جديدة

د- ضرورة وجود الولي. فقد ورد عنه ﷺ أنه قال (٣٥٠) (إنما امرأة تزوجت بغير إذن وليها

فزوجها باطل) وكررها ثلاثا.

(٣٤٩) راجع: محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة: دار الشروق ١٩٧٤ ص ٦٣ ص ١٥٩ وراجع: الفصل الثالث من كتاب المؤلف: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه: مصدر سابق (٣٥٠) المصدر السابق .

هو عقد الزواج والقرآن أطلق عليه القرآن الميثاق الغليظ. فلا زواج إلا بعقد (وَلَا تَعْرُضُوا  
عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ) (البقرة ٣٥)

و- الكفاءة: والإسلام حرص علي أن يكون الزوج كفواً لزوجته في كل القيم التي يعتز الناس  
بها في حياتهم، ضماناً لحسن التوافق والعشرة بين الزوجين، واستمرار الأسرة. كل هذا في ضوء  
قِوامة الرجل، التي هي قوامه رعاية وحماية ومسئولية وإنفاق.

ز - الصداق أو المهر، وهو منحة تقدير للزوجة يحفظ عليها حياها وكرامتها مع ضرورة عدم  
الغلو في المهور.

ح - هناك شروط معاصرة وهو التوثيق وهو من باب السياسة الشرعية حفظاً للنسب والحقوق.  
والقرآن والسنة حددتا بوضوح وجلاء حقوق كل من الزوج والزوجة والأبناء يقول تعالي (وَأَلْهَنُ  
مِثْلُ الَّذِي عَلَّيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَّيْنَهُنَّ دَرَجَةٌ) (البقرة ٢٢٨). ويقول الشيخ محمد عبده: إن  
الإسلام رفع النساء إلى درجة سامية لم تصل إليها أمة قبل الإسلام أو بعده. وأهم حقوق الزوجة  
علي الرجل.

أ - الإنفاق عليها باعتماد ب- حسن المعاملة والمعاشرة بالمعروف

ج - الملائقة والمداعبة باعتماد

د - الغيرة باعتماد. فالله يغار، والمؤمن يغار كما أخبرنا الرسول ﷺ

هـ- وبعض العلماء يضيفون حق الزوجة علي الزوج في الشوري والمشاركة في قضايا الأسرة

- الإنفاق، وتربية الأبناء، ومواجهة أمور الحياة..

أما حقوق الزوج علي زوجته فقد حدها الإسلام فيما يلي.

أ- الطاعة في غير معصية (فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَّيْنَهُنَّ سَبِيلاً) (النساء ٣٤)

ب- الحفاظ علي مال الزوج

ج- ألا تدخل أحداً إلى بيته إلا بإذنه

د - عدم الخروج من منزل الزوج إلا لضرورة وإذنه

هـ- حسن التعلل، وحسن تربية ورعاية الأبناء والبيت

ولن نفصل فيها فقد فصلتها في دراساتي السابقة (٣٥١). أما عن حقوق الأبناء فأهمها: حق النسب، وحق الرضاع، وحق الحضنة، وحق التأديب الإسلامي بغرس عقيدة الإسلام، وحق القدوة الصالحة، وحق النفقة والرعاية والحماية والتوجيه. وخلاصة نظام الحقوق والواجبات داخل مؤسسة الأسرة، والتي حددها الإسلام بجلاء إنما تنقسم إلى عدة أنواع (٣٥٢).

- ١- حقوق مشتركة بين الزوجين، مثل المعاشرة الزوجية، وحسن المعاشرة اليومية والاحترام المتبادل، وعدم الإهانة أو الإساءة، والشوري..
- ٢- حقوق الزوج علي الزوجة، وقد أجمالناها، في الطاعة، والقرار في البيت وغيرها مما ذكرناه
- ٣- حقوق الزوجة علي الزوج وقد سبق بيانها
- ٤- حقوق الأبناء

ثانياً: الإسلام جعل البر بالوالدين والإحسان إليهما ورعايتهما في مرتبة بعد توحيد الله وعبادته مباشرة. وهذا يدل علي رفعة منزلة الأسرة في الإسلام، وضرورة إحاطتها بسياج من الحماية، حفاظاً علي سلامة الإنسان، والمجتمع، والإنسانية قال تعالي (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغْنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) (الإسراء ٢٣) وقال تعالي (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (النساء ٣٦) والأوامر بالإحسان إلى الأقارب مقترنة بالإحسان بالوالدين في أغلب آيات القرآن الكريم، ومنها ما سبق ذكره. كذلك فقد أوصي الله الوالدين بحسن تربية الأبناء في بعض الآيات في الذكر الحكيم، منها قوله تعالي (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم ٦)

من كل هذا يتبين لنا كيف اهتم الإسلام كتابا وسنة بمؤسسة الأسرة بوصفها المؤسسة أو النظام المركزي في المجتمع، والذي يحقق كل أهداف الإسلام في نشر وتفعيل وأعمال عقيدة التوحيد، والقيم العليا وبناء الإنسان التقى النقي السوي الصحيح جسميا وعقليا ونفسيا وروحيا وسلوكيا. الإنسان الصالح المنجز المنتج النافع لنفسه وللآخرين. وبناء مجتمع قوي متكامل يقوم علي الحق والعدل والتكافل والمساواة ونشر الخير لكل من حوله من مجتمعات، وللإنسانية كلها.

(٣٥١) منها بناء المجتمع الإسلامي ونظمه - دار الشروق (ط ٤ ٢٠٠٥)، ومنها الدين والبناء العائلي دار

الشروق جلة ١٩٨٥، ومنها الدين والبناء الاجتماعي: دار الشروق جلة ١٩٨٣

(٣٥٢) عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية: مؤسسة الرياض للنشر والتوزيع سنة ١٩٧٨ ص ٧٤ .

## الإسلام في مواجهة التحديات المهددة لمؤسسة الأسرة:

والتابع للتطورات العالمية في مجال الأسرة في الغرب والشرق، يمكنه أن يرصد مجموعة من المتغيرات ومحاولات التجديد، تمثل أقصى درجات الخطورة على بناءها، وعلى وظائفها، وعلى دورها في المجتمع، سواء دورها النفسي كأساس يحقق المودة والرحمة والسكن، أو دورها الإنجابي بإعداد المجتمع بأعضاء شرعيين، حتى لا ينقرض النوع الإنساني، أو دورها التربوي والذي يتمثل في نقل ثقافة وعقائد وقيم الأجيال السابقة للأجيال القادمة، أو دورها الأمني سواء الأمن النفسي والصحة النفسية، وتحرير الإنسان من القلق والتوتر والصراعات، أو دورها المادي بوجود الإنسان داخل بناء من الحب والقبول يطمئن فيه على حياته، ويؤمن فيه مستقبله حيث يضمن الرعاية الاجتماعية والنفسية والمادية في حالة الشيخوخة أو المرض. هذا بالطبع فضلا عن الوظائف الأخرى للأسرة كالوظائف الاقتصادية والسياسة.

ونستطيع أن نذكر أهم هذه المخاطر التي تواجه الأسرة على المستوى العالمي باسم التجديد والتطوير والتحديث والعصرنة وما شابهها من مصطلحات براقعة فيما يلي:

**أولاً:** إعادة صياغة أو إعادة هيكلة الأسرة، وإعادة مفهومها، وإعادة بناء القيم والمعايير والمبادئ المؤسسة لمؤسسة الأسرة. نحن نعلم أن كل الأديان السماوية - بل وأغلب الأديان الوضعية - تؤسس الأسرة على أساس ديني كرابطة أو عقد بين رجل وامرأة، يقوم على أساس المعايير والأركان الشرعية في كل دين، يترتب عليه حقوق وواجبات أو التزامات على كل طرف من أطراف العلاقة - الرجل والمرأة - وهذا العقد يركز على القبول الديني، والقبول الاجتماعي من المجتمع وأهل كل من الزوج والزوجة، وعلى الإيجاب والقبول والإشهار وشهادة الشهود وضرورة وجود ولي للزوجة، والصدائق... الخ.

لكننا فوجئنا خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة بتعريفات جديدة لمؤسسة الأسرة تروج لها بعض المؤسسات الدولية، كأجهزة الأمم المتحدة وبعض مؤسسات المجتمع المدني العالمي، حيث تعيد تعريف

الأسرة بأنها رابطة اختيارية حرة بين أي اثنين يرغبان في الارتباط والمعيشة المشتركة. هذا يعني إسقاط عدة أسس ومعايير مهمة عند تعريف الأسرة، وأهمها (٣٥٣):

- إسقاط شروط الانطلاق من دين أو بناء شرعي.
- إسقاط شرط أن يكون أحد أعضاء العقد ذكر والآخر أنثى، حيث يمكن أن تتألف الأسرة من اثنين من الذكور (لواط) أو من الإناث (سحاق).
- إسقاط أهمية رضاء الأهل خاصة ولى المرأة.
- إسقاط شرط القبول الاجتماعي أو الإشهار أو الإعلام الثقافي عن إتمام الزواج.
- إسقاط ما يترتب على العقد من حقوق وواجبات.
- إسقاط حق ما يترتب على هذه الحالة أولاد غير شرعيين يمكن أن تكفل بهم الدولة أو مؤسسات المجتمع المدني.

ومن المؤسف أن هذا النوع المستحدث من الأسر يمارس فعلا في الغرب والشرق تحت شعارات براقعة، مثل:

حرية استخدام الجسد، والحريات الشخصية، ورفع الوصاية، سواء الأهلية أو البشرية أو الاجتماعية القيمة عن الناس. ومن المؤسف أكثر أن بعض الكنائس في الغرب تبارك أحيانا هذا الزواج المثلي، بل وتسمح أن يعقد هذا الزواج داخل الكنائس (حالة هولندا).

**ثانيا:** التطرف في العلمانية، والذي يعني إسقاط كل المقدسات الدينية والثواب الشرعية عن تنظيم مؤسسات المجتمع بما فيها الأسرة. والحضارة الغربية لها مجموعة من السمات التي تختلف جذريا عن الحضارة الإسلامية، وأهمها سمتين: الأولى التصور الصراعى للحياة والعلاقات والنظم الاجتماعية، وهذا التصور يرجع لجذور الحضارة الغربية عن الحضارة الإغريقية، فالكهنة في صراع، وطبقات المجتمع في صراع، والشعوب في صراع، وتاريخ المجتمع الغربي هو تاريخ الصراع بين الآلهة وبين الطبقات وبين الدول المستعمرة وبينها وبين المستعمرة. وقد امتد هذا التصور الصراعى إلى مؤسسة الأسرة، فهناك صراع بين المرأة والرجل وبين الأدوار التي يقوم بها كل منهما.

(٣٥٣) راجع البحوث المقدمة للمؤتمر الدولي حول أحكام الأسرة بين الشريعة الإسلامية والاتفاقيات والإعلانات الدولية. الذي عقدته جامعة الأزهر ورابطة الجامعات الإسلامية بطنطا من ٧ - ٩ أكتوبر ٢٠٠٨، خاصة بحوث د/ فنى القاطرجي،،، و د/ أحمد الداغش ورشا الدسوقي علي وجه الخصوص .

أما السمة الثانية للحضارة الغربية التي انعكست سلبا على بناء وظائف مؤسسة الأسرة، هي: سمة التطرف، وأوروبا في القرون الوسطى قد ساد فيها التطرف الكهنوتي الديني، حيث سادت الكنيسة وساد البياوات، وتم رفض كل ما يتصل بالعلم، والعقل، والاجتهاد البشري، فالحكم الكهنوتي هو الحكم الوحيد المقبول<sup>(٣٥٤)</sup>.

وقد تعرض العديد من العلماء والمفكرين للقتل والحرق، وراحوا شهداء محاولة التفكير العقلاني الحر مثل: جيوناردو برنو، وجاليليو، وغيرهم. ومع بزوغ عصر النهضة، سادت قيم العلم والعقل على حساب قيم الدين وعلى حساب الثوابت والموروثات الثقافية، وظهر تطرف من نوع آخر هو التطرف في إعلاء وتقديس الإنسان وتقديس العقل، وإسقاط كل ما يتصل بالألوهية والقيم والأخلاق الدينية. وقد انعكس هذا سلبا على مؤسسة الأسرة حيث سادت الحريات المطلقة التي أدت إلى تفسخ وإسقاط الثوابت الدينية التي تقوم عليها مؤسسة الأسرة. هذه الحرية غير المنضبطة أدت إلى سيادة ما يطلق عليه " حرية استخدام الجسد و ظهور مفهوم الجندر Gender، وحرية الممارسات الجنسية خارج الزواج وقبول الأطفال غير الشرعيين، ولم يعد يشار إليهم بهذا المصطلح، والأكثر من هذا ظهر ما يسمى بحقوق المراهقين والمراهقات الجنسية، وحرية الممارسات الجنسية الشاذة، مثل الجنسية المثلية بين الذكور أو بين الإناث. وقد أسسوا جميعا متشديات للدفاع عن حقوقهم، وقد حصلوا على هذه الحقوق (التي لا تستند إلى أساس مشروع، والتي تعد انحرافات في الديانات السماوية سواء على المستوى السياسي أو القانوني أو الاجتماعي، وقد كان لهذا انعكاسه على مؤسسة الأسرة.

ومن أهم مظاهر هذا التطرف العلماني:

١- ظهور مفهوم العلوم الإنسانية Human Sciences، وهي تعني في أوروبا بعد عصر النهضة: انفصام العلاقة بين كل العلوم التي تدرس الإنسان، كعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم النفس، وعلم الإنسان، وعلم الأسرة، وبين المنطلقات والثوابت الشرعية. وهنا أصبح كل ما يتصل بحياة الإنسان وعلاقاته ونظمه وتنظيماته وضوابطه وجماعته ومجتمعه، أمر يتصل بالعقل والاجتهاد البشري، ولا شأن له بالدين أو المقدسات الدينية أو الجوانب الروحية أو الأخلاقية، ولا شك أن

مؤسسة الأسرة من أهم الخصوصيات الإنسانية التي فصلت عن ضوابطها الشرعية، وعن القيم الأخلاقية والجوانب الروحية (٣٥٥).

٢- عقدت في أوروبا - خلال القرن السابع عشر والثامن والتاسع عشر - العديد من الاجتماعات والمؤتمرات؛ لمناقشة مجموعة من الأمور العجيبة، مثل هل المرأة إنسان أم شيطان، وبعض الاجتماعات توصلت إلى أنها شيطان، وأما المسئول الأول عن الخطيئة الأولى وإخراج آدم من الجنة. هذه الخطيئة التي ظلت ملازمة للإنسان، واحتاجت إلى المسيح المخلص وإلى التوبة والإنابة وإلى الكثير من الطقوس التطهيرية (٣٥٦). ومن المعروف أن الإسلام لا يحمل حواء مسؤولة الخطيئة في الجنة، وعلى العكس، فإن كل النصوص القرآنية إما أنها تحمل آدم وحده مسؤولة الخطيئة ( وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) أو يحملهما معا مسؤولة تلك الخطيئة (فَبَدَأَ لَهُمَا مِن سَوَاءِهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ). وهذا يعني أن المسؤولة إن لم تكن على آدم فهي عليهما معا، أي: آدم وحواء.

والمرأة المسلمة إنسان مثلها مثل الرجل سواء بسواء، خلقا من نفس واحدة، وهن مثل الذي عليهن بالمعروف، والنساء شقائق الرجال، وهذا حديث عن الرسول ﷺ.. ويقول تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء ١) ويقول تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة ٢٢٨) ويقول تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (التوبة: ٧١)

فالنساء هن نفس الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمدنية للرجل سواء بسواء، هذا علي عكس ما كان سائدا في الفكر الكنسي الكهنوتي الغربي في العصور الوسطى. وفي مقابل هذا التطرف والتمييز ضد المرأة، ظهر بعد عصر النهضة نوع من التطرف المضاد، وهو الإعلاء المفضل لشأن المرأة، ومنحها حقوقاً مطلقة إلى درجة التسبب والانحراف والتطرف، مما انعكس سلبا علي مؤسسة الأسرة حيث تراجعت هذه المؤسسة وتزايد معدل العزوف عن الزواج، وكذا الزواج خارج الكيسة، وانتشر الفساد والفسق الأخلاقي والشذوذ الجنسي بدعوة كاذبة هي: حقوق الإنسان.

(٣٥٥) راجع محمد قطب: حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية: دار الشروق ١٩٩٨ ص ص ١٨ وما بعدها

(٣٥٦) المصدر السابق ص ١٨

٣- المرأة في الغرب تفقد اسم أبيها بعد الزواج وتنسب إلى زوجها، كما أن أجر المرأة التي تعمل مثل الرجل تماما، ربما يصل إلى نصف أجر الرجل. صحيح أن هذا كله بدأ يتغير لكنه مازال يمارس في مناطق عديدة من الغرب. وقد كان الإسلام هو تاريخ الميلاد الحقيقي لحقوق المرأة وحرمانها المنضبطة بضوابط الشريعة (٣٥٧).

٤- أصبحت المرأة في الغرب تستخدم لأغراض ليست راقية، ولا تحفظ للمرأة كيانها وكرامتها وغبتها كما أراد الله وشاء، فأهم وظائفها في الغرب امتاع الرجل، وتوظف لهذا الإمتاع (البغاء، والدعارة، والرفقة السيئة)، كما توظف في خدمة رجال الأعمال وتسويق المنتجات والإعلان عنها (٣٥٨)، وتعمل في وظائف السكرتارية والعلاقات العامة، وتقوم بأداء أعمالها بلا ضوابط دينية أو أخلاقية، بل وتستخدم أيضا في الأمور المحرمة كالبغاء وترويج المخدرات والقمار... كل هذا تحت مسميات زائفة، مثل تحرير المرأة، وتحت دعاوي زائفة مثل حق المرأة في استخدام جسدها، والتمتع بجماها وحقها في الأناقة والمظهر الحسن... إلخ.

٥- علي الرغم من كل هذه المزاعم، نجد أن الغرب يمثل أعلي نسبة في ممارسة العنف ضد المرأة، فالإحصائيات التي تخرجها بعض جمعيات حقوق الإنسان تشير إلى أن امرأة من بين كل أربعة نساء تتعرض للعنف بالضرب، وأن معدلات التحرش الجنسي، بل ومعدلات الزنا بالمخارم عالية في الغرب، تحت تأثير الخمور والمخدرات والانحلال الخلقي، وإقصاء الضوابط الدينية عن واقع الحياة الاجتماعية.

٦- وكرد فعل متطرف لهذا الاتجاه الذكوري الذي ساد في القرون الوسطى الأوروبية، ظهرت حركات أنثوية وظهرت العديد من الجمعيات ومنظمات المجتمع المدني التي تطالب بالحقوق المطلقة للمرأة، وهناك المؤلفات العديدة في هذا الصدد، مثل: كتاب "أنثوية العلم" الصادر عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت (٣٥٩).

(٣٥٧) راجع دراسة جيدة لإبراهيم أبو محمد بعنوان: المرأة بين حضارتين: الإسلامية والغربية- سلسلة قضايا إسلامية العدد ١٢٩ من سلسلة قضايا إسلامية الصادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٥ خاصة من ص ٢١ - ٢٦ .

(٣٥٨) راجع دراسة جيدة لإبراهيم أبو محمد بعنوان: المرأة بين حضارتين: الإسلامية والغربية- سلسلة قضايا إسلامية العدد ١٢٩ لسنة ٢٠٠٥ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٢١ - ٣٢  
(٣٥٩) راجع كتاب أنثوية العلم الصادر عن عالم المعرفة الكويت

٧- يجب الإشارة بموضوعية كاملة إلى أن هذه الاتجاهات التسيبية المجردة من الضوابط الدينية السائدة لدى قطاعات واسعة من المجتمعات الغربية، تقابلها اتجاهات محافظة تلتزم بالحفاظ على مؤسسة الأسرة، وعلى تماسكها وتكاملها وأدائها لوظائفها في تحقيق الأمن الروحي والاجتماعي والاقتصادي والنفسي والإنساني.. وفي هذه المؤسسات الدينية مثل: الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الأرثوذكسية، والكنائس الإنجيلية، هذه المؤسسات تدافع عن مؤسسة الأسرة وعن الروابط الأسرية.

ثالثاً: ظهور اتجاه في الغرب يتزايد حدة وقبولاً، وهو ما يطلق عليه (الأنثوية feminism) والذي في بعض توجهاته المتطرفة مثل Gender Feminism يحاول الإغلاء غير المنضبط من شأن المرأة، والتخلص بما يطلق عليه هيمنة الرجل أو صورة المجتمع الأبوي أو سيطرة الذكور في المجتمعات الإنسانية، وهو يحاول إعادة تحرير المرأة للتخلص من كل الضوابط القيمة والأخلاقية والشرعية لممارسة حرياتها الجسمية والنفسية والاجتماعية والسياسية دون قيود، هنا يصبح:

\* ارتباط المرأة بمؤسسة الأسرة نوع من العبودية لها.

\* زواج المرأة وارتباطها برجل نوع من العبودية لها.

\* رعاية المرأة لزوجها وأولادها ووقوف نفسها عليهم شكل من أشكال العبودية.

\* للمرأة الحق في كل أشكال الحرية ومنها حرية استخدام الجسد وحرية الارتباط بأنثي مثلها (السحاق).

\* طاعة المرأة لزوجها ووقفها نفسها عليه وحده دون سواه هو شكل من أشكال العبودية.

رابعاً: اتجاه تبنته بعض فئات المجتمع الغربي أطلق عليه اتجاه التفكيكية deconstruction أو deconstructionism هذا الاتجاه ينحو نحو تفكيك المجتمع التقليدي بمؤسساته ونظمه، وصولاً إلى مجتمع متحرر من أسر الماضي، وأسر التقاليد وأسر النظم المكبلة التي تمثل - في نظرهم - قيوداً على حرية الرجل والمرأة والأبناء. فالأسرة في نظر البعض مؤسسة تمثل القيد والسجن والاستعباد لكل من الرجل والمرأة. كذلك فإن هذا الاتجاه يحاول تفكيك المؤسسة الدينية التي تفرض على الإنسان قيوداً وضوابط عقائدية وقيمية وسلوكية لا حصر لها، ونفس الأمر ينطبق على مؤسسة الدولة، وهذا الجانب تبنته مجموعة تتمثل فيما أطلق عليه الفوضوية anarchism، وهو اتجاه تبنته الماركسية في بعض جوانبها، حيث سعت في النهاية إلى إسقاط الدولة بوصفها جهاز طبقي منحاز

دائماً لأصحاب وملاك أدوات الإنتاج ضد الطبقة الكادحة، وتفكيك المؤسسات الدينية لأنها مخدرة للشعوب، وتفكيك مؤسسة الأسرة وإطلاق العنان لها.. لا يهمننا الاسترسال في اتجاه التفكير، لكننا سنكتفي هنا بالقول إنه اتجاه نشأ في علوم اللغة لتفكيك النص اللغوي ثم انتقل إلى مؤسسات المجتمع وهو اتجاه في الغالب مناهض لمؤسسة الأسرة، كما نجد أن دول الغرب يحاولون تطبيقه في المجال السياسي والعسكري مع دول العالم النامي، ولعل محاولات تفكيك العراق والسودان والمغرب العربي علي أساس عرقي أو قبلي أو فئوي أو ديني، ليس إلا امتداد لهذا التوجيه الخطير للفكر الغربي.

خامساً: اتجاهات وتطبيقات الحدائة وما بعد الحدائة، حيث تمثل خطراً كبيراً علي مؤسسة الأسرة؛ لأنها اتجاهات تهدم الأسس الدينية والقيمية والأخلاقية لهذه المؤسسة، بوصفها رباط مقدس أو ميثاق غليظ ورابطة شرعية تستند إلى معيارية الدين والأخلاق. فقد حدث تغير في بنية المجتمع العالمي من الحدائة إلى ما بعد الحدائة، وهو يمثل خطراً أكبر علي مؤسسة الأسرة، سواء علي مستوى بنائها أو وظائفها. فقد قامت الحدائة في الفكر الغربي علي مجموعة من المبادئ التي تمثل مشروعاً حضارياً علمانياً في مواجهة المشروع الحضاري الديني، وأهم هذه المبادئ:

١- الفردية: حيث استهدفت انتشار الفرد من الدوبان في بنية المجتمع الإقطاعي السابق علي الرأسمالية، وانتشاله من الدوبان في بنية الفكر الديني (النظام الكنسي خلال القرون الوسطي الأوروبية)، حيث كانت الهيمنة للإقطاعيين وآباء الكنيسة، وكان بينهما تحالف غير مقدس لقمع حرية التفكير والتعبير والاعتقاد والعمل والإنتاج، والسعي للثراء وتحسين مستوى ونوعية الحياة في الدنيا، هكذا ضاعت ذاتية وقيمة الفرد، وهكذا كانت محاولة استعادة هذه الذاتية والهوية الفردية، من خلال إعلاء قيمة الفردية Individualism في المشروع الفكري والعملية الغربي.

٢- العقلانية: وتعني الاعتماد علي العقل مصدراً وحيداً للمعرفة والمعلومات والعلم، أو علي الأقل اعتماد العقل مصدراً للتشريع في الحياة والعلاقات الإنسانية، مع استبعاد الدين وعزله عن الحياة الدنيا، وعن الحياة الاجتماعية، وعن العلاقات الإنسانية، وعزله وراء جدار حديدي كعلاقة فردية بين العبد وربيه، ولا شك أن العقلانية Rationalism ترتبط بالرأسمالية والمشروع الفردي والمشروع الحر، وقد فصل ماكس فيبر في قضية العقلانية وفي علاقتها بالرأسمالية<sup>(٣٦٠)</sup>. والإتكاز علي

العلم المادي التجريبي، وعلي التكنولوجيا وهي الجانب التطبيقي للعلم، وخاصة بعد تحولها إلى منظومة لها استقلالها، تصنع القيم المادية والاقتصادية، والاعتماد علي هذا النوع من العلم والتكنولوجيا في مواجهة مشكلات الإنسان والمجتمع والعلاقات (٣٦١).

٣- اعتماد المنهج الوضعي منهجاً وحيداً لفهم وبحث قضايا العلوم الإنسانية والاجتماعية، فكل ما يوجد يوجد بمقدار، وكل ما يوجد بمقدار يمكن قياسه، وما لا يمكن قياسه يخرج عن دائرة البحث العلمي ليصنف في دائرة الفكر الغيبي أو الخرافي أو الأسطوري المرفوض عند الحدائين، أو علي الأقل المستبعدة من دائرة التشريع للإنسان والمجتمع وللعلاقات.

٤- تبني اتجاه التقدم في خط واحد صاعد لكل جهود المجتمع والإنسان والتاريخ.

٥- فصل الدين عن الحياة والمجتمع والقانون والممارسات اليومية.

٦- وبعد اتجاه الحدائة الذي يفصل الدين عن الدنيا، جاء اتجاه ما بعد الحدائة للإجهاز علي البقية الباقية مما تبقي من الدين والقيم الأخلاقية. هنا سقط كل ما تبقي من الأنساق الفكرية المغلقة Meta-narratives التي تأخذ شكل أنساق فكرية، وأيديولوجيات كلية تزعم أنها تملك الحقيقة المطلقة، مثل: الماركسية الجامدة، والرأسمالية المتطرفة، والأديان والمذاهب الدينية الأصولية المشددة، وفي مقدمتها عندهم ما يسمى (الأيديولوجية الإسلامية) وسقوط هذه الأيديولوجيات الدينية وكل المقدسات والمطلقات، والدخول في عصر الأنساق الفكرية المفتوحة، وسقوط كل الثوابت وكل المطلقات، وكل الضوابط المسبقة، وكل المعايير التي تعد بمثابة موازين يحكم بها علي السلوك أو العلاقات أو النظم أو المؤسسات، انطلق الفكر الغربي للتأليف بين ما كان يظن أنه متناقضات، وسقطت كل المقدسات وفي مقدمتها المعايير والمبادئ والقيم والمعتقدات التي تحكم العلاقة بين الرجل والمرأة وكان لهذا آثاره المدمرة علي بناء ووظائف وقيم وأدوار مؤسسة الأسرة.

سادساً: المتغير السادس الذي يهدد بناء ووظائف مؤسسة الأسرة هو فرض العولمة - Globalization بتجلياتها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية والاجتماعية. وهي في التحليل الأخير تعني هيمنة الدول الأغني اقتصادياً والأكثر تقدماً علمياً وتكنولوجياً، وهي مجموعة الدول الثمانية ومعها بعض الدول الأكثر تقدماً كاليابان، والدول الساعية بجد للتقدم كالصين وكوريا وسنغافورة - علي مقدرات الدول النامية والفقيرة، ومعناها أيضاً أن هذه الدول الأخيرة

ليس أمامها إلا أحد أمرين: إما العمل الجاد للتقدم العلمي والتقني والمعلوماتي بإعادة سياسة واجتماعية ومدنية جادة، وإما الاستقالة من الفعل والوجود والتاريخ وتحولها إلى شعوب متفرجة. وبما أن كل محاولات التنمية الجادة في الدول النامية لا يمكن أن تتحقق إلا مروراً بالأجهزة الدولية كالبانك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ونادي باريس وسوق التكنولوجيا والمعلوماتية العلمية العالمية، وهذه الأجهزة والمؤسسات تسيطر عليها الدول الغربية المهيمنة، فإنها لا تجعل التحول للتقدم أمراً سهلاً أمام الدول النامية؛ لأن هذا يتناقض مع مصالحها المشروعة وغير المشروعة.<sup>(٣٦٢)</sup>

وهناك جانب آخر للعملة يهدد مؤسسة الأسرة وهو محاولة فرض قيم وأخلاقيات وسلوك المجتمع الغربي على دول العالم وهو ما يطلق عليه "العملة الثقافية" هذا الشكل من الهيمنة الثقافية الغربية يحاولون فرضه من خلال آليات عدة أهمها:<sup>(٣٦٣)</sup>

آلية التوصيات الملزمة التي تخرج بها المؤتمرات الدولية، مثل مؤتمر السكان والتنمية الذي عقده الأمم المتحدة في مصر عام ١٩٩٤م، ومؤتمر بكين عام ١٩٩٥م وبكين + ٥ + ١٠، والقمة الاجتماعية بكوينهاجن عام ١٩٩٧م، ثم بمتابعة هذه المؤتمرات مثل بكين + ٥ عام ٢٠٠٠م، ثم بكين + ١٠ عام ٢٠٠٥م. هذه المؤتمرات تبناها أجهزة الأمم المتحدة ومؤسسات المجتمع المدني العالمي، وتخرج بتوصيات مصادمة للثقافة الدينية عموماً إسلامية ومسيحية. صحيح أن هناك تحفظات عليها من جانب مؤسسة الأزهر وبابا الفاتيكان والكنيسة القبطية المصرية، وبعض المؤسسات الدينية لكنها كتوصيات تؤخذ في الحسبان عند تقرير المساعدات والمنح والقروض الاقتصادية والعسكرية التي تقرها الدول الغربية، وتقررها مؤسسات التمويل والائتمان الغربية، كالبانك الدولي، ومؤسسة النقد الدولي للدول النامية<sup>(٣٦٤)</sup>

والفاحص لهذه التوصيات يجد أنها تركز على مجموعة من الأمور التي تمدد مؤسسة الأسرة في بنائها ووظائفها، مثل:

(٣٦٢) - راجع في هذا دراسة أحمد أنور بعنوان الآثار الاجتماعية للعملة . الهيئة العامة للكتاب - مكتبة الأسرة ٢٠٠٤ - الفصل السابع المتعلق بالمنظور السوسولوجي لعلاقة الاقتصاد بالدين،، والفصل الثامن الذي يدور حول اثر التغيرات الاقتصادية على أنساق القيم الاجتماعية ص ص ٢٢٣ - ٢٢٦

(٣٦٣) - راجع كمال ابو الجهد. مصدر سابق ص ٤٥ وما بعدها .

(٣٦٤) - راجع هلاي أحمد،،، وخالد القاضي: حقوق الطفل في الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية - مكتبة الأسرة ٢٠٠٨ م

- حرية ممارسة الجنس خارج الزواج.
- رفع وصاية الآباء على الأبناء
- إباحة حق الإجهاض للفتيات
- حرية استخدام الجسد لكل من الذكور والإناث، بمعنى ممارسة اللواط والسحاق... إلخ.
- عدم التقييد بالمبادئ والمعايير الدينية في تكوين الأسر.
- تشجيع الزواج المدني للمرأة ورفع كل الضوابط والقيم المكبلة لحرية الارتباط بين الذكر والأنثى وفي مقدمتها الضوابط الدينية.

أهم المخاطر المحلية الاجتماعية والثقافية المهددة لمؤسسة الأسرة:

وإلى جانب هذه المخاطر الاستراتيجية العظمى، التي تهدد بدمم مؤسسة الأسرة التي تمثل المركز الأساسي للمجتمعات البشرية، والتي تطورت عنها هذه المجتمعات، والتي تحتل الموقع الأساس في بناء المجتمع والاستقرار الثقافي والأمن بكل صورته وأشكاله، هناك بعض الأزمات التي تعترض الأسرة، لكنها أقل استراتيجية من العوامل السابقة الهادمة للأسرة، ونستطيع رصد أهم هذه العوامل الداخلية المهددة للأسرة كمؤسسة ذات طابع ديني وثقافي واجتماعي ونفسي... وإلخ وهذه العوامل هي:

١- **العامل الاقتصادي:** وهذا العامل يؤدي إلى تأخير سن الزواج، لعدم القدرة على تحمل أعباءه، سواء المتصلة بالمهر والشبكة وتوفير السكن والأثاث، وعدم القدرة على تلبية مطالب أسرة جديدة، بعد الزواج لعدم القدرة على مواجهة مطالب الزوجة والأبناء خاصة في ظل الارتفاع المستمر في الأسعار، وتزايد الحاجة إلى مصاريف مدارس، ودروس خصوصية وإلى العلاج الخاص... إلخ هذه الإشكالية الاقتصادية ليست فقط من أهم العوامل المؤخرة لسن الزواج، وإنما هي أيضا من أهم عوامل الطلاق والهيار كثير من الأسر. وهذا ما ترصده العشرات من الدراسات الاجتماعية.

٢- **البطالة:** وهي من أكبر الأمراض الاجتماعية والاقتصادية التي أصيبت بها مجتمعاتنا العربية، وتصل أحيانا إلى أكثر من ٢٠% من القوى العاملة، ولن ندخل في أسباب البطالة من تغيرات هيكلية في بنية الاقتصاد، والاتجاه العام نحو الليبرالية والخصخصة، وضعف الاستثمارات المحلية والأجنبية، وضعف أجهزة الائتمان وتمويل وتدريب الشباب على المشروعات الصغيرة، وضعف برنامج التسويق المحلي والخارجي، وضعف مشاركة مؤسسات المجتمع المدني من أحزاب ومنظمات

غير حكومية وجمعيات أهلية ونقابات عمالية ومهنية، في مواجهة مشكلة البطالة، وعدم صلاحية المناخ العام للاستثمار داخل كثير من الدول الإسلامية.

### ٣- ارتفاع وتزايد معدلات تعاطى المخدرات بين الشباب غير المتزوج والمتزوج، ولاشك

أن التعاطي يمثل أزمة صحية وأسرية وعقلية واقتصادية، بل وسياسية ونفسية. فأرباب الأسر المتعاطين غالباً ما يقصرون في الإنفاق على أسرهم، ويفضلون إرضاء مزاجهم على حساب الزوجة والأبناء، مما يؤدي إلى العديد من المشكلات الأسرية، ويهدد بالطلاق والانفصال وتشرذم الأبناء، وقد يؤدي إلى العديد من الانحرافات. أما التعاطي قبل الزواج فإنه يؤدي إلى الانحرافات المتعددة التي تؤدي إلى ضعف الرغبة في الإقدام على الزواج، وإذا تم الزواج يكون مهدداً بالانفصال في أي وقت.

### ٤- سوء الاختيار والتسرع في اختيار الزوج أو الزوجة، فكثير من الزوجات تتم على أساس

انفعالي عاطفي، وليس على الأسس التي حددها الشرع الحكيم، وهذه العوامل تتمثل في حديثين شريقتين: الأول: يحدد معايير اختيار الزوجة، والثاني: يحدد عوامل اختيار الزوج يقول ﷺ "نكح المرأة لأربع: لمالها وجهالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك(٣٦٥)" أو كما قال ﷺ "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير(٣٦٦)"

### ٥- الأمية الدينية عند الأزواج والآباء والأمهات، فأغلب هذه الفئات تعاني من نقص الوعي

الديني، أو بالأحرى من وعي ديني مزيف، فالعديد لا يعاشر زوجته بالمعروف كما أمرنا الله تعالى ونفس الشيء بالنسبة للزوجات، فالغالبية ليسوا على وعي بحقوق كل من الزوج والزوجة والأبناء، وحتى وإن كان على وعي - وهي قلة - فإنهم يتصرفون على نحو يتنافى من حقائق الدين، فالكثير من الأزواج يهمل الزوجات ويسئ معاملتهن بزعم أنه الرجل وهو السيد، وهو صاحب الحق المطلق على الزوجات، وكثير من الرجال يكثر من تهديدات الزوجات بالطلاق لصغائر الأمور، بل ويرمى عليهن بيمين الطلاق، وكثير من الأزواج يحرم الزوجة مع حقها في حرية إبداء الرأي ومن المشاركة في تقرير أمور الأسرة بزعم أنه هو الرجل وصاحب الكلمة العليا والنهائية... إلخ ولاشك أن هذا فهم زائف لمفهوم القوامه في الإسلام.

ونفس الأمر هناك بعض الزوجات الجاهلات بأمر الدين، واللاتي يسرفن في الطلبات ويكلفن أزواجهن فوق استطاعتهم، مما قد يضطرهم للانحراف، ناهيك عن الغير مطيعات لأزواجهن، وغير العابئات برعاية الأزواج والأسرة. وهؤلاء يغفلن عن حقيقة أكدها النبي ﷺ ألا وهي أن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل الجهاد في سبيل الله، وأن الجنة تحت أقدام الأمهات اللاتي يحسن التبعل لأزواجهن ويحسن تربية الأبناء تربية دينية سليمة.

**٦- غياب الوعي التربوي لدى الآباء والأمهات.** فالأصل أهم القدوة والمثل الذي يحتذي به الأبناء، والأصل أنهم يوجهون الأبناء ويحرصون على غرس العقيدة الصحيحة والقيم العليا ومكارم الأخلاق والسلوكيات القويمة في أبنائهم، والأصل أنهم يتابعون الأبناء بالرقابة وحسن التوجيه ومشاركتهم في مواجهة ما يتعرضون له من مشكلات وأزمات، ويحرصون على بيان الطرق القويمة والتي يرضى عنها الله ورسوله لأبنائهم. الأصل أيضا أن يغرسوا قيم الرجولة للذكور، وقيم الأنوثة للبنات، ويغرسوا قيم إقامة الحوار وتقبل الآخر، وثقافة الحرية والديمقراطية من خلال الممارسات اليومية. هذا الوعي التربوي المفقود لدى الكثير من الآباء ينعكس على الأبناء فنجد الشخصيات الخائعة القلقة غير القادرة على تحمل المسؤولية وغير القادرة على تأجيل الرغبات، وغير القادرة على قبول الآخرة والمشاركة الإيجابية، وعلى ممارسة حقوق الإنسان بالنسبة له وللآخر، أو المرفهة غير القادرة على التقشف... هذه الشخصيات - رجالا ونساء - من أهم عوامل فشل الحياة الزوجية وأهمiar الأسرة، وعدم صلاح الأبناء بل وأحيانا كثيرة من أهم العوامل الدافعة إلى الانحراف على مستويات كثيرة.

**٧- العامل السابع والمهم الذي يمثل خطرا على مؤسسة الأسرة،** هو ما يمكن تسميته بالعهر الإعلامي المكثف على الكثير من القنوات الفضائية المتخصصة في عرض وتسويق الجنس، وكذلك العديد من المواقع على الانترنت، والتي تتخصص في عرض أدق تفاصيل الجنس شهوة وممارسة وتسويقا ودعاية.. هذه المتغيرات لا نقول إنما مؤامرة، بل نقول إنما تمثل خطرا على شباب لا تمكنه إمكانياته من الزواج الشرعي، ويجب هنا أن نركز على الحصانة الثقافية والتربية الدينية. ولكن حتى هذه الحصانة غير متوفرة نتيجة للعوامل التي سبق بيأنها. ففي ظل هذه الحملة المسعورة في عرض الجنس، هناك خطورة كبرى على الشباب، وعلى مؤسسة الأسرة سواء من ناحية عدم الإقبال عليها أصلا أو فشلها بعد التكوين. فالشباب قبلة موقوتة والجنس حاجة أساسية، وقد

وجهنا رسول الله ﷺ إلى ضرورة الإسراع بالزواج تحقيقاً للإشباع المشروع والإحسان، وأن من لم يستطع فعله بالصوم فإنه له وجاء.

ولكن في ظل النقص الخطير في الوعي الديني لدى الأبناء والمربين هناك خطورة حقيقية على الشباب، فمهما كانت التربية سليمة لا يمكن إلغاء الحاجات الفطرية كالحاجة إلى الأكل والنوم والجنس، وتمثل الخطورة هنا في حالة فشل المجتمع بمؤسساته الرسمية والمدنية في إيجاد حل لهذه المشكلة، سوف يلجأ الشباب إلى حلها بشكل غير مشروع، وهنا تكمن الطامة الكبرى وتشيع الفاحشة، ويكون التهديد قويا لمؤسسة الأسرة المشروعة.

يتضح من كل التحديات الخارجية والداخلية التي تهدد الأسرة، أن العامل المشترك فيها الابتعاد عن المنهج الإلهي في بناء ووظائف ومهام وأدوار الأسرة كما رسمها ديننا الخفيف، وأنه لا مناص من إعمال وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في كل المجالات، بما فيها مجال الأسرة.

وبعد وما السبيل ؟

لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها، ولا صلاح لنا إلا بتطبيق منهج الله في بناء الفرد وبناء الأسرة وبناء الجماعة وبناء المجتمع، وهذا يقتضى منها مواجهة المشكلات والتحديات الكبرى التي تواجه الشباب وتواجه بناء الأسر المستقرة الآمنة.

ولا شك أن الحل هنا لا يمكن قصره على زيادة الجرعة الدينية أو الوعي الديني أو التربية في الأسرة والمدرسة والمسجد والمؤسسات الثقافية في المجتمع. هذه المؤسسات وأدوارها غاية في الأهمية، لكن الحل يتخطى هذا على تطبيق المنهج الإسلامي في شكله الشامل الكامل المتكامل. فهناك البعد الاقتصادي الذي يتصل بالتنمية الاقتصادية، وزيادة الاستثمارات والمشروعات الكبرى، وتشجيع المشروعات والصناعات الصغيرة لمواجهة مشكلة انخفاض المستوى الاقتصادي، وتزايد معدلات البطالة والتضخم، وهناك الدور المهم للحكومة، والدور الأهم لمؤسسات المجتمع المدني في تدبير وبناء حضانات الأعمال والمؤسسات الائتمانية القادرة على تمويل هذه المشروعات الصغيرة، وعلى تدريب الشباب على ممارسة هذه المشروعات، وعلى تسويق المنتجات. ومن أهم المداخل لإصلاح المجتمع إطلاق خطط للتنمية أو التغيير المخطط داخل المجتمع. ويكون هذا في البداية بتنمية ثقافة المشاركة في الحوار واتخاذ القرارات ووضع السياسات داخل الأسرة والمدرسة، ثم تنظيم العمل، ثم مؤسسات المجتمع المدني، كالأحزاب والنقابات والاتحادات والنوادي والجمعيات الأهلية، وقيمة المشاركة أن يصح الشباب جزء من العملية السياسية الكلية لتشكيل المجالس المحلية والبرلمانات ومراكز اتخاذ القرار والمناصب الرفيعة العليا في الدولة، كما فعل رسولنا ﷺ مع شباب الصحابة.

ويجب ألا تغفل أهمية البحث العلمي المبتنى من سياسات وخطط محددة هدفها نشر المعرفة واستيعاب المعارف العالية وتوظيفها في خدمة تنمية المجتمع بكل فئاته، ولا يقتصر الأمر على نشر المعرفة وتوظيفها، وإنما يجب السعي نحو توطينها وصولاً إلى استنبات وإبداع ومعارف تدخلنا في مجتمع المعرفة العالمي، ولا شك أن دور الشباب المثقف والعلماء هو الدور الأهم في بناء مجتمع المعرفة، هذا المجتمع هو المدخل للتقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والاستقرار الأمني الذي سينعكس إيجاباً على مؤسسة الأسرة في المجتمع. والجدير بالذكر أن ثقافة الإسلام هي المؤسسة لمجتمع المعرفة، فأول أربع آيات نزلت في القرآن تحدثت عن أدوات المعرفة ومضامين العلم وهي: القراءة والتعليم، والقلم، والعلم، وخلق الإنسان وتكوينه. وهناك الدور السياسي الذي يتصل بتشجيع وتربية النشء والشباب على ثقافة حرية التفكير وإبداء الرأي، وآداب الحوار وقبول الآخر، وهذه هي ثقافة الديمقراطية أو الشورى بالمفهوم الإسلامي.

وهناك دور الدولة في تحقيق عدالة التوزيع، وبناء فرص العمل والاستثمار والإنتاج أمام الشباب، سواء في المجال الزراعي أو الصناعي أو التجاري أو الخدمي، وهناك الدور المجتمعي، حيث يجب أن تتغير النظرة الدونية إلى العمل اليدوي، فقد كان الأنبياء جميعهم - عليهم السلام - يأكلون من عمل يدهم، ويجب أن تتغير نظرة الشباب وتمسكهم بالوظائف الحكومية، ويجب أن تكون لهم المبادرة والمبادرة بالاعتماد على أنفسهم، والسعي للاستفادة من كل مؤسسات الائتمان والتمويل ومختلف المؤسسات الحكومية وغير الحكومية. وهناك الدور التربوي المخطط للمدارس والمعاهد والجامعات، سواء بأن تضمن مفردات المناهج والمقررات أموراً تطبيقية يمكن أن تفيد المتخرج في حياته العملية، وتعظيم التطبيقات الميدانية في الجامعات والمعاهد، وتوظيف التعليم بجميع أنواعه في خدمة برامج التنمية ومواجهة مشكلات المجتمع وسوق العمل.

إن التحديات الخطيرة المواجهة لمجتمعنا الإسلامية والنامية متعددة ومتعاطمة، ولا يوجد أمام مجتمعتنا إلا أحد أمرين لا ثالث لهما:

**الأمر الأول:** الأخذ بالمنهج الإسلامي الذي يؤكد على العقيدة والقيم والأحكام الشرعية وعلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبناء المجتمع الأقوى إيماناً والأقوى مادياً (اقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً)، مجتمع الشورى والمشاركة، مجتمع إعلاء شأن الأسرة والمؤسسة الدينية، وإعلاء شأن العلم والعلماء، سواء علوم الدين أو علوم الدنيا، مجتمع المشاركة الفعالة الإيجابية من جانب كل أعضاء المجتمع، مجتمع إعلاء شأن المرأة إلى أرفع مكانة في إطار قيم العفة والطهارة والتقوى وأحكام شريعة الله الخالق، مجتمع مشاركة المجتمع المدني في اختيار الحاكم والحكومة المدنية، مجتمع الرقابة

الشعبية، والنقد الإيجابي المتوازن البناء الدافع للمزيد من التقدم. كل هذا لأن المجتمع الإسلامي له رسالته السامية كما حددها الشريعة.

كل هذا يعني بإيجاز تطبيق منهج الله في التربية، وغرس العقيدة والقيم والسلوك الصالح، وفي بناء أسر إسلامية صحيحة، وفي تكريم العلم والعلماء، وفي الانطلاق لبناء مؤسسات علمية قادرة على استخراج طاقات الإبداع لدى المسلمين، وتطبيق منهج الله في بناء اقتصاد خال من الآفات التي نهب إليها الإسلام، ومنهج الله في ممارسة العمل الأهلي المثمر، وممارسة ثقافة النقد والمساءلة والرقابة الشعبية التي أرساها الإسلام - منهج الله الذي يستهدف بناء الإنسان التقى الورع المسلح بالإيمان والقادر على استيعاب أحدث علوم وتقيات العصر، والقادر على الإبداع واستنبات تكنولوجيات جديدة قادرة على استعادة النهضة الروحية والعقلية والمادية للمجتمعات المسلمة، واستعادة أجدادنا من السلف الصالح الذين نقلوا العالم من الظلمات إلى النور في مجال العقيدة والفكر والعلم والسلوك والأخلاق والاقتصاد.... ولكن كل هذا إنما يبدأ من الأسرة المسلمة المؤسسة على منهج ومبادئ ومعايير ديننا الإسلامي الخفيف. كل هذا يمثل الخيار الأول.

**أما الخيار الثاني:** فهو الاستقالة، وتحول مجتمعاتنا وشعبونا إلى بقايا شعوب منقرضة، يتجاوزها التاريخ العالمي في مسيرته التقدمية، مثل الهنود الحمر... ونسأل الله أن يستعملنا فيما يرضه عنها، وألا يستبدلنا لقوله تعالى: (وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) محمد ٣٨ والمجتمع المسلم مجتمع فاعل صانع للحضارة على المستوى العالمي، مجتمع يؤكد قيمة العلم والتكنولوجيا، وينشر القيم العليا ومكارم الأخلاق مجتمع يهب لنصرة المظلومين والمضطهدين، مجتمع يسعى لاستماع الإنسان بأعلى مستويات الحياة بشرط نظافة المصدر ونظافة المضمون، في إطار الضوابط الإسلامية، مجتمع يؤكد على سيادة اخبة والإخاء والسلام بين كل البشر، ولا يسمح بالحرب إلا في حالة الاعتداء على الأرض أو العرض أو محاولات الفتنة في الدين، وحتى في حالة الحرب يركز الإسلام على مجموعة من القيم العليا، وهي عدم الاعتداء على المسالمين من الأطفال والنساء والشيوخ، بغض النظر عن الدين الذين يدينون به، مجتمع لمحارب الإرهاب والتطرف والعنف غير المشروع بكل صورته... هذه الخصائص ومنظومة القيم والمهام التي ينهض بها المسلم كإنسان إيجابي فاعل في حركة المجتمع والتاريخ، لا تصدر إلا عن تربية تحقق الصحة النفسية والاجتماعية والبدنية داخل أسرة متماسكة مطبقة لأحكام شريعة الله وهدية في بناء الأسرة، ومن ثم بناء المجتمع الصالح وسوف نعالج في فصل قادم عطاء الإسلام الحضاري في مجال التربية والصحة النفسية، وعمارة الإنسان - بروحه ونفسه وعقله وجسده.